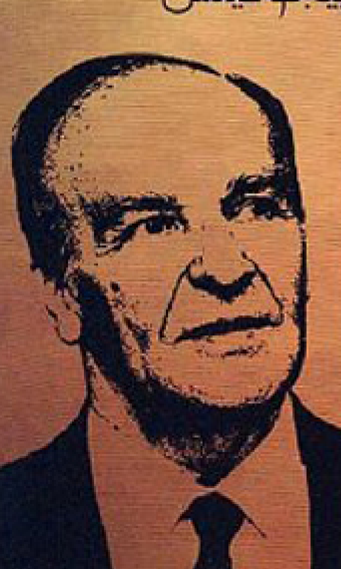


نبت الأرض وابن السماء

الحرية والفن

عند علي عزت بيجوفيتش



محمد بن حامد الأحمري

العبيكان
Obeikan

نبت الأرض وابن السماء

الحرية والفن

عند علي عزت بيجوفيتش

محمد حامد الأحمري



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا النص في أصله محاضرة قدمتها ليلة الأحد الرابع من رمضان 1424هـ الموافقة للسابع عشر من أغسطس 2007م، في النادي الأدبي بالرياض، وقد كانت بعنوان: "الحرية عند علي عزت بيجوفتش"، سرت مع صاحب الرحلة إلى الحرية عبر منازل مهمة، ومواقف فكرية وشخصية في مجالات الحرية تستحق المعرفة والفهم، حرية الروح وحرية العقل وحرية البدن، وحرية الأمة والعرق، مسار يختلف عن طريقة أبحاث الحرية ومسالك دراستها المعتادة في البحوث، إن أقررنا بمناهج تضبط ذلك. وعند مراجعة النص للنشر أكملت بعض القضايا المتصلة بالمحاضرة، وعقبت تعقيبا له صلة بالموضوع عن السعادة في منظور علي عزت مقارنا ببعض النصوص من فلاسفة آخرين، وعرجت على موضوع السجن وأثره، بأقل القول، وبالرغم من أهمية السجن في مسيرة حياته السياسية والفكرية ولكنه كتب عنه بنفسه ما يغني عن إعادته. ثم إني أعطيت الاهتمام لمسألة الحرية عنده كمسيرة بحث عنها فقد صاغ البحث عنها سيرته أملا وعملا، فلم تكن عنده بحثا علميا، ولا ترفا فكريا، بل كانت حاجة ملحة، ومشروعا لأمة ولشخص فعمل لها وبحث عنها وخاض معركتها لتحرير روحه وعقله وبدنه.

بعد أن فرغت من كتابة وتقديم هذا النص رأيتني وقد تبعت في المحاضرة طريقته في كتابه: "هروبي إلى الحرية" حيث إنه قرأ ولخص نصوص الناس مع تعليقات قليلة منه، ورأيتني فعلت ذلك هنا! ولعل هذه الطريقة تحت هذا العنوان هي الأنسب، والأكثر دقة وأمانا في زمن قصير، وفي محاضرة عاجلة، وكان مصدر الدراسة الأساسي هو الكتاب السابق، مع شيء من السيرة الذاتية، ونادرا ما رجعت آنذاك إلى كتاب: "الإسلام بين الشرق والغرب" وقد أردت أن أضع بيد المثقف مفتاحا لبعض آراء ومواقف علي عزت في قضية مهمة وهي عنده قضية عمر، ولتكون بداية اهتمام، وشيئا من التقريب، لا يغني عن ورود المشرع.

علي عزت هنا قد يكون من تعرفون، و قد تجدون هنا شخصا آخر يختلف عن الذي كان في صورة الإعلام أو في الذاكرة، ولكني لم أتصنع تصنيفا مفتعلا بلا سبب، ولم أتكلف افتراضا ولا تنظيرا، فقد يظهر هنا، كما عهدتموه، أو ترون أنفسكم في مرآته، أو يخلف ضنكم، فحسبي أني قدمت منه جانبا مهما للمثقفين والمهتمين بحياته العملية ونصوصه المهمة، أو كما أحببت له أن يكون، لقد تجنبت تفاصيل كثيرة لها علاقة بقصة البوسنة كالتاريخ والحرب ثم الصلح، وأعرضت عن جوانب شخصية عديدة تمسه، لأن هذه القضايا إما أنه قد كتب عنها بنفسه (في سيرته الذاتية)، أو كتبت عنها نصوص تاريخية وسياسية موسعة وكثيرة، لا حاجة لتكرارها. وقد خرجت قليلا ونادرا إلى قضايا رأيتها مهمة، أو تستحق التفاتا من عابر قاصد مكانا آخر، فشد انتباهه في

الدرب ما يستحق لمحة بلا وقوف كاف لرؤية المشهد. كما أنني حرصت على تجنب موضوع "الحرية" كمفهوم، ولم أتحدث أيضا عن "الحرية في الإسلام"، لأنني كتبت بحثا أطول عن الموضوع، أرجو أن يطبع قريبا.

أشكر للأساتذة الأفاضل الذين كان لتعليقاتهم -شفاهة أو كتابة- على المحاضرة أثرها على الصياغة النهائية، منهم الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك، والدكتور عبد الله الصبيح، والدكتور سعد العتيبي، والدكتور محمد العبد الكريم، والأساتذة خالد البسام ومحمد ناصر الأسمري وعدد من الحاضرين الذين كان لملاحظاتهم دورها في صقل بعض جوانب المحاضرة. وكان للأستاذ أحمد إبراهيم ملاحظاته الجيدة لمعرفته بالبوسنة، وتوضيحات لبعض اللبس، وقد كان للدكتور محمد موفق الأرنأوط مؤرخ البلقان الكبير مساهمته المشكورة في ضبط بعض المعلومات المتعلقة بثقافة المنطقة، وكان للصديق سامي الحصين دوره في صقل هذا النص، كما أشكر أخيرا للأستاذ محمد الهويمل المشرف على برامج النادي الأدبي في الرياض اهتمامه بالموضوع، فهو سبب هذه الفكرة، ثم لتقديمه وإدارته لحوار ثري في أمسية رمضانية ماتعة.

أما القسم الثاني الذي كتبته لاحقا بعنوان: "الفن والدين عند علي عزت بيقوفتش" فقد قرأه كل من الأستاذ حسن بن حسن من جامعة قطر، والدكتور محمد السعيدي مشكورين، وكانت لكل منهما ملاحظاته

القيمة التي أفدت منها، وعدلت بعض الأفكار والصياغات وفقها وبعض الملاحظت لم تجد طريقها للنص مع تقديري الكبير لرأيهما.

هذا القسم الأخير دراسة ملحقة تناولت جانبا مهما من كتاب هو أهم أعماله الفكرية هو: "الإسلام بين الشرق والغرب"، وقد كتبت هذا القسم بعد نحو عامين من تقديم وتحرير "المحاضرة" أو القسم الأول، فاختلفت طريقة كتابته تماما عن الطريقة التي اتبعتها في القسم الأول "المحاضرة" فهذا النص الأخير أقرب لدراسة ورؤية من مجرد حشد لما جمعه وما قاله في الموضوع، ولم يكن ممكنا في هذا السياق -المستنبطة فكرته من كتابه: "الإسلام بين الشرق والغرب" المختلف عن النصوص المجموعة وتعليقاته- أن أسير على ما سبق في بحث الحرية عنده، ولأن نصوص الحرية كانت في غالبها نقل مع قليل من التعليق، أما في القسم الثاني فكان الحديث عن الفن مغريا بالالتفات هنا وهناك وبالتعليقات والملاحظات، وقد قاومت –أحيانا- إغراء تفريع الدراسة والبقاء عند قوله فلم يكن ذلك ممكنا أغلب الأوقات. وبسبب مما أشرت إليه في البحث الثاني من ارتباط الحرية بالفن وبالدين والروح عنده ولأنها أخذت جهدا كبيرا من كتابه الأهم فقد جمعت النصين -مع اختلاف طريقة التناول- في نص واحد يتجاوز مسألة الشخص ومسألة الحرية والتكامل في شخصيته وفي فكره إلى عناصر أخرى تستحق تأمل القارئ المهتم بالموضوع قبل وبعد الشخص الذي كان مثالا في انكار ذاته فاعترف به الجميع.

القسم الأول

بدايات

في بداية أزمة البوسنة والهرسك تحدث أحدهم عن المشكلة في أحد المجالس فردّ الآخر عليه بأنه كان يتوقع أن البوسنة والهرسك: "أمراضا معدية"، فإذا بلغ الجهل بالبوسنة إلى تلك الحال فلا شك أن رجلا مثل علي عزت سيبقى مجهولا لنا حتى أظهرته أحداث كبار؛ وكان قد قارب الستين من عمره ولم يكن معروفا كمفكر له ما يليق به من شهرة وتقدير، فقد تخلفت المعرفة بشخصه وجهاده ومكانته الكبرى زمنا طويلا؛ ومن أسباب ذلك تأخره في الكتابة، ثم إن كتاباته كانت في لغة مغلقة صغيرة نسبيا (الصربية الكرواتية)، ولم يكتب بالعربية ولا الإنجليزية، فتأخر ظهورها في اللغتين كثيرا، ومما سبب تأخر معرفة الناس به ذاك الظلام الشيوعي المتطاول على بلاده، ولأن ما قيل أنه أهم كتبه: "الإسلام بين الشرق والغرب" كان أعلى من أن يكون كتابا لعامة المثقفين، ثم إن ظهور الكتاب كان في وقت معركة وجود قومية البوسنيين أو عدمهم، فكانت الحرب تغطي على كل شيء. أيضا لم يكن يمثل شيئا من المدارس والمذهبيات الإسلامية والجماعات ، المنتشرة في العالم العربي والإسلامي فلم يكن لأفكاره من ممثلين خارج بلاده، ولا مسوقين، وكان متواضعا، فلا يثير جلبة حول أعماله، وكان مفكرا رصينا لا يقول للناس إلا ما يعتقد أنه يرقى بهم، فكان يكتفي كثيرا بالنقل الأمين والإحالة والتعريف عندما تستحق الفكرة إعادة تعريف بها، لا مجرد كلام عنها،

ولم يكن يُكثر الكتابة ولا الكلام ليقول أنا إنسان الزمان. كثير من أفكاره ومواقفه المعرفية تحتاج إلى تسهيل وتقريب حتى تكون مندمجة في جسم الثقافة الإسلامية. وإن لم تتم عملية التعريف والتقريب لأفكاره الأساسية فقد يمتدحه الناس مستقبلا امتداح مهابة، كبعض مثقفي العالم الكبار، ممن يكتفي القارئ بمدحهم، ولا يجرؤ على اقتحام قلاعهم.

علي عزت نجم البلقان لأكثر من عقد من الزمان، ونجم مدينة سراييفو الذي أشع نورا في سمائها الملبدة بالشيوعية ثم بالعنصرية أكثر من خمسين عاما، نجم سراييفوا التي عاشت مآسي العصور، والمواجهات الإسلامية المسيحية فقد سبق للنمساويين أن أحرقوها تماما، واقتادوا عشرة آلاف رجل وامرأة منها، استعبدوا الرجال، والفتيات المخدرات المسلمات وزّعوهن على الضباط والجنود كسبايا حرب. "

نتحدث عنه لأنه جمع بين قوة العقل وإشعاع الروح، بين المحارب حامي البلاد، والمفاوض الشريف، الذي ارتفع فوق ركام كبير من الأحقاد، ومن ضعف النفوس، ومن قصور النظر، ومن التاريخ البائس ليصنع لنا قدوة في زمن صعب. وكانت كتبه عالية القدر عميقة الفكر، وكان سلوكه وأعماله شاهدا صادقا على أقواله.

وكان أنموذجا للمثقف المعتدل الواعي الزعيم، ليس فقط بين المسلمين ولكن بين زعماء العالم وثوّاره على مدار قرون بعيدة، فقد حكم مثقفون كبار، ولكنهم أساءوا كثيرا، ونادر منهم من تحلى بصفات سامية،

ولكن علي من أبرز نماذج المسلمين المعاصرين لنا الجديرين بالمعرفة والدراسة.

حياته

نناقش هنا قضية الحرية من خلال علاقتها وتجليها في شخصية وأفكار علي عزت بيجوفتش، ولنبدأ بالشخص، فقد عاش في البوسنة، التي فتحها العثمانيون عام 1463م، في السنوات الأولى من حكم الترك بنوا مسجدا وخانا وسوقا، وحماما تركيا، وشيدوا جسرا، وأقاموا السراي "مقر الحكومة" ومنه جاءت كلمة "سراييفوا". وقد أشار الدكتور محمد الأرناؤوط إلى وقفية مهمة لتأسيسها سميت: "وقفية تأسيس سراييفو" وتعود أصول عائلته المسلمة إلى بلغراد التي هُجِّرت أسرته منها عام 1868، وكانت قد انقسمت عائلته على ثلاثة أقسام أحدها غادر إلى تركيا، وفرع عائلته إلى قرية شاماتس التي سميت: "عزيزية" نسبة للسلطان الذي وهبها للمهجّرين من بلجراد، ولد في قرية بوسانسكي في البوسنة عام 1925م وسمي عليا على اسم جده، أما جدّته فاسمها "صدّيقة" وهي تركية، وكان والده يعرف بعض التركية ويتحدثها مع والدته، مما يغيض زوجته (أم علي عزت). قدم به والداه إلى سراييفو وعمره عامان . ليكونوا قريبا من أسرة والدته. نشأ في أسرة كبيرة، وله ستة من الإخوة والأخوات، هو سابعهم، وكان والده يعمل في التجارة، ثم أصيب بجرح في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الإيطالية، مما أورث له شللا في السنوات العشر الأخيرة من عمره، ولهذا اضطر أن يعمل وأن يساعد إخوانه بعد إصابة والده، مما أورثهم قدرا كبيرا من الحرية. كانت أمه ورعة حريصة على الصلاة وكانت توقظه لصلاة الفجر ليصليها في

المسجد، وكان علي متأثرا بإمام المسجد العجوز الذي كان دائما يتلو في الركعة الثانية سورة الرحمن، ويشيد بـ "ذلك الإمام العالم الذي يوقره جميع أهل الحي .. المسجد بين أزهار الربيع وصلاة الفجر، وسورة الرحمن ..صور جميلة ما زلت أراها بوضوح من بين ضباب السنين التي مضت. "

وكانت العلاقات في شبابه جيدة بين المسلمين والصرب قبل زرع الأحقاد، التي كثيرا ما تشعلها السياسة، يقول: "كان هناك احترام متبادل بين الجميع، أذكر أنه عندما كان جارنا ريستوبريان -وهو أحد الملاك الصرب- يمشي في القرية كان يسّلم على كل امرأة يراها في حديقتها، ولكنه كان يدير وجهه للجانب الآخر عندما يسلم على النساء المسلمات، كي لا يخدش أو يخالف تعاليم الإسلام. "

بدأ دراسة المحاماة، ثم غير تخصصه بعد حكم الشيوعيين إلى علم التربة، وكان قد (نصحه والده بألا يدرس المحاماة بسبب حكم الشيوعيين فلا مستقبل للمحاماة تحت حكمهم) ثم عاد مرة أخرى لدراسة القانون، وقد أنهى دراسة القانون عام 1962 وكان وصول الشيوعيين إلى حكم يوغسلافيا بقيادة تيتو في عام 1945، ولم يبلغ علي سن التاسعة عشرة، وبقيت البلاد في قبضة الشيوعيين القاسية إلى عام 1966، ثم خفف تيتو منها في سنواته الخمس الأخيرة، وتوفي هذا الديكتاتور عام 1980، انتسب علي لمنظمة الشباب المسلم "الشبيبة" عام 1946 وسجن على

إثر ذلك سجنه الأول، ثم حكم عليه عام 1983 بالسجن 14 عاما، قضى منها في السجن خمس سنوات وثمانية أشهر، وخرج عام 1988م، كتب خلالها: "هروبي إلى الحرية" الذي لخص منه مجلد ترجم إلى اللغة العربية وإلى لغات أخرى، كتبه في سجن "فوتشا" حيث قضى ألفي يوم وليل طويل.

يقول عن هذا الحكم: "كان الموت هو الأمل الوحيد، أخفيت هذا الأمل بداخلي مثل سر كبير لا يعرفه أحد غيري، ولا يستطيعون تجريدي منه" (ص 18) تلك الحال النفسية يصفها سجين من قبله: "لا شك إنه من الصعب على من لم يمر بهذه الخبرات أن يتصور الصراع النفسي المدمر للروح "

كانت له ملاحظاته على القانون الشيوعي وهي كثيرة ومهمة،(في السيرة الذاتية) ولكنها ثقيلة على القارئ العام، (فلا نطيل فيها هنا) وقد كتب تأملا طريفا بعد إحدى جلسات محاكمته: " ماذا كنت أنتظر أفضل مما قدم القضاة (المدعي العام وقاضي التحقيق) والذين بدأوا معارفهم بالمقولة الماركسية بأن: (القانون هو إرادة الطبقات الحاكمة المتحولة إلى قانون) المعادلة التي تقع في تضاد ساخر مع القانون." (ص 339)

ومن أبشع وجوه الاستبداد وعار الشيوعيين ما توصلوا له من عقوبة أسموها: "الجنحة الكلامية" والتي تنص على: "إن أي شخص يقوم بإهانة أو مهاجمة نظام الدولة كلاميا، أو كتابيا، أو تصويريا، سيعاقب

بالسجن لمدة تصل إلى خمس سنوات." ثم حكم عليه إثر ذلك بسجن تسع سنوات مع الأشغال الشاقة.

ويعقب على هذه العقوبة بقوله: "لقد درسنا في المدرسة أن تاريخ البشرية بدأ وأصبح الإنسان حيوانا تاريخيا عندما تعلم الكتابة، ولكن الإنسان أصبح سلالة بشرية عندما تعلم الكلام، وأن يقول ما يفكر به. ومن ثم جاء أولئك الذين منعوه من الكلام واخترعوا قانون الجنحة الكلامية سيء السمعة، مخالفات وجنح بسبب كلمات. فأعادوا الإنسان بذلك إلى الظلمات التي كان الإنسان يعيش فيها. "

إن الشيوعية وبخاصة الستالينية والماوية قضت على الإنسان في سجونها، وعلى روحه في خارجها، فلم يصبح هناك أبطال، أبدا، والأحرار يحاكمون على أنهم خونة، أو يرسلون للمصحات النفسية على أنهم مرضى، أو يعاملون كجيف في السجون، في طريقها للدفن.

ولكن علي عزت برغم هذه المعاناة، والمشاعر تغلب بجدارة، وبتصرفات غاية في الوعي والاستقامة أن يقلب حياة السجن إلى دوحة للمعرفة والروح والوعي، وبالرغم من ضيق المكان فقد أفاد من وفرة الزمان لدى السجين، وجعل لحياته معنى كبيرا، وبالمعنى في الحياة يتغلب الكبار على المحن: "ويل لمن لا يرى في الحياة معنى، فأي محاولة لاسترداد السجين لقوته الداخلية ينبغي أن تنجح أولا في أن تجعله يبصر لنفسه هدفا مستقبليا، يقول نيتشه: "من يملك سببا يعيش من أجله

فإنه يستطيع غالبا أن يتحمل بأية طريقة وبأي حال" فالويل لمن لا يرى في حياته معنى، ولا يستشعر هدفا أو غرضا لها؛ ومن ثم لا يجد قيمة في مواصلة هذه الحياة، وسرعان ما يحس بالضياع. "

وهو يكتب باللغة البوسنية، ويجيد بعض اللغات مثل الألمانية والفرنسية والإنجليزية. عاش تحت الحكم الشيوعي المستبد قرابة خمسين عاما، أواخرها فترة مضطربة. وعمل في مهن مختلفة منها في هندسة التربة، ومنها فترة في نجارة الموبيليا، وقال إن غبارها سبب له أمراضا قد تتسبب في موته، وكانت أغلب فترات عمله في المحاماة.

أنشأ حزب العمل الديموقراطي عام 1989 وترأسه عام 1990، ثم ترأس حكومة البوسنة بعد الاستقلال إلى أن استقال من الحكم عام 2000 بسبب ما بيّنه من ضغوط دولية لا يطيقها، وتوفي عام 2003 بعد سقوطه في البيت وتعرضه لبضعة كسور، وكانت لديه أزمات قلب سابقة.

كتب عن نفسه وأسرته: "الوقائع والمصائب السياسية التي مررت بها في الحياة جعلت أولادي يفكرون مبكرا، ويقررون في أمور حياتهم ومشاكلهم. أعتقد بأن ذلك كان باكرا جدا، أكثر مما يجب. وكان لذلك بالطبع نتائج جيدة، وحسنة. وأرجو الله أن تكون الحسنة منها أكثر." (ص 43)

حمل علي عزت همّ حرية أمته على عاتقه، وهمّ تحرر عقولها على عقله، وهم حرية أبدانها، وتجول في بلاده يدعوها للوعي والحكمة، ويستنهضها للحرية، ثم حمل أحزان بلاده إلى أصقاع بعيدة، يحمل أملا مستمرا لمدة تزيد عن ستة عقود من السنين، سلاحه التفاني والحرص مع استبصار في المعارف والروح والعقل والفن والفلسفة والدين والتاريخ قل أن يطاول، وعن معرفته بالرسم قال: " قرأت كل ما وصلت إليه يدي عن الرسم. وأعتقد أنني فهمت الرسم الحديث بقدر ما يعرفه غيري ما عدا ما يمكن أن يفهمه المبدع ذاته." (ص.56)

ولقي جلائل المحن، وكل ذلك لم يحّطم جسده المعتدل، ولا عقله الكبير، لقي ربه سعيدا مطمئنا متغلبا على أحزانه، وقد حقق الكثير؛

قل لمن يحمل هما إن همك لن يدوم

مثلما تفنى السعادة هكذا تفنى الهموم

له كتب أهمها: "الإسلام بين الشرق والغرب "، بدأ كتابة بعض مسوداته قبل أن يطبع بأكثر من عشرين عام. وهو أهم كتبه، كتبه باللغة البوسنية، واعتقل عام 1983 وهو يعمل فيه، فسربت مسودات الكتاب غير مكتملة، وترجمه صديق له مقيم في كندا إلى اللغة الإنجليزية، ونشر أول مرة عام 1984م، طبع الكتاب مرتين، ونشر بالإنجليزية قبل نشره بلغته الأصلية، ثم ترجم للعربية من الإنجليزية، ترجمه عنها

محمد يوسف عدس، ترجمة جيدة. يقول المؤلف عن كتابه: " لقد كان هدفي في ذلك الكتاب هو أن أدرس المكانة التي يحتلها الإسلام في أفكار وحقائق عالم اليوم, ولقد بدا لي أن الإسلام يقع ما بين التفكير الشرقي والغربي تماما، كما هي حال الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي، حيث يقع بين الشرق والغرب.. ويرى أن هناك ثلاث وجهات نظر عالمية، ولا يمكن أن يكون هناك أكثر من تلك؛ وهن: وجهة النظر الدينية، والمادية، والإسلامية. "

وكتاب: "هروبي إلى الحرية "، و "البيان الإسلامي" والبيان مهم كخطاب وبيان سياسي واع وفي زمن مبكر لعملهم، وليس كعمل فكري خاص به وإن كان في الحقيقة هو الذي أعد الكتاب وهكذا عرف به. وله أيضا: "سيرة ذاتية " كتاب يقع في 766 صفحة، بعض نصوصه كتبها بنفسه، وبعضها محاضرات ومقابلات متنوعة.

علي عزت أنموذج لندرة من الرجال الذين هم أكبر مما يسمح به زمانهم أو مكانهم لهم، وكانت تلك حال البوسنة مع علي، فقد أعطته البوسنة فوق ما تستطيع دويلة محاصرة أن تقدمه من الشهرة والتأثير، وأعطى من الجهاد لبناء أمته المحاصرة الكثير، وأعطى الفكر والثقافة الإسلامية أكثر مما يمكن أن يعطيه مثقف مسجون أو محاصر كحصاره لعقود. كان يتمتع بقوة روحية هائلة؛ "إن القوة الداخلية للإنسان قد تعلو به فوق قدره في هذا العالم الخارجي "

ويحسن أن نسوق بعض ملامح شخصيته:

كان قويا مع مرونة، وأوضح ذلك حرصه على العمل والمفاوضات طوال الوقت وحرصه على إنجاز موقف عملي، مفيد ولو كان جائرا أو أقل مما يطمح له، فقد كان يدرك توجهات العالم الغربي، وكراهته لكيان إسلامي في أوروبا، و "حادثة القبول بالصلح" أنموذج يستحق التقدير، فالتصلب هنا مهلكة، والصلح غبن، ولكنه أخف الضررين فقبل بما وصفه: "سلام جائر خير من حرب مهلكة." وقد أوصله الوضع إلى شبه يأس من نصير في عالم القوى الدولية رغم بقايا صراع الغرب آنذاك، وعندما تلوح لحظة أمل، أو انفراج فإنه لا يضيعها، ولا يمتهن نفسه في البحث عن عون المعرضين عنه، وقد كشف عن حادثة محاولة الأمريكان الاتصال به في ذروة الحرب، في باريس وتنصله من دعوتهم، حتى رصدوا له من يقابله في الشارع وهو يتمشى بعد التاسعة ليلا في المطر، ثم ألحوا عليه بدخول السفارة الأمريكية في باريس حيث كانت السفيرة تنتظره عند الباب، ولمح في طرف المكان ريتشارد هولبروك، -الذي رتب سلام ديتون، وكان مندوب أمريكا في الأمم المتحدة- وكان على الهاتف نائب وزير الخارجية الأمريكية، يقنعونه بمشروعهم ودورهم وغياب دور الأوربيين، ووعدوه بفك الحصار عن سراييفوا ثم ضربوا الصرب في اليوم التالي .

وقد كانت تلك المذابح من الشواهد الكبيرة في عصر العلمانية وزعمهم أنهم لا ينحازون ولا يتطرفون دينيا في أوربا، فقد سكتت الدول الغربية عن ذبح المسلمين، وحاصرتهم ومنعتهم من شراء السلاح أو إدخاله بأي طريقة، وكما حدث في العراق من تحريم الحديث عن واحد من أهم أسباب الحرب، وهي نهب نفط العراق، كما كتبت جريدة الـ "واشنطن بوست" قبيل وبعد غزو العراق عن تحريم استخدام حرف [O]: الذي يرمز للحرف الأول من كلمة: نفط في الإنجليزية [Oil]. في حرب البوسنة كان السبب المحرم أو الكلمة المحرم تداولها في مواقف الحكومات الغربية هي الحديث عن "الدين"، ودوره في موقفهم، أو ذكر كلمة [دين] أو الإسلام أو أنه سبب تقاعسها وصمتها عن استمرار المذابح كون القتلى مسلمين، فهل النادي المسيحي الأوربي كان يفضل إبادة المسلمين على وجود كيان إسلامي له أي أهمية في أوروبا، حتى في منطقة كالبوسنة، أم أن السبب العجز، والعجز عن إيقاف المذابح لا يبرر منعهم من التسلح، وإطلاق أيدي الصرب في رقابهم. في أثناء تلك الأزمة قدمت إحدى محطات التلفاز البريطاني مقابلة مع وزير الخارجية: "دجلاس هيرد " والحرب موضوع المقابلة، وكان الصحفي الجريئ "سنو" يطارده ويلح عليه لينطق بالتعريف أو الإشارة إلى السبب الديني، أو الهوية الدينية للحرب ولكن الوزير أصر وبالغ في الهروب من استخدام ما يشير أو يشعر بنوعها. ملتزما بما ترسخ في علاقات الغرب مع العالم الإسلامي، إذ يحاربون بروح دينية،

وقد يستثيرون شعوبهم بها كما فعل بوش، ولكنهم في الآن ذاته يغلفون هذه الحروب الدينية بأغلفة علمانية.

منذ بدايات حياة علي كانت عنده أسئلة ثلاثة: "ماذا يمكن أن أعرف؟ ماذا يجب أن أفعل؟ وبماذا يجب أن آمل؟ (ص. 36) فاهتم بالمعرفة، ثم بالعمل، وكان واقعيا في آماله؛ وتميز بسعة الثقافة، مع حياة عملية لا عزلة معرفية فيها "لم يكن متفلسفا منعزلا بل كان يهتم ويشهد ويعاني حياة الناس العامة ويندمج في جزئيات أعمال أطفاله، كما يندمج في تفسير لوحات فنية، أو مسرحيات، أو روايات، أو كتاب فلسفي، أو يناقش قانونا، أو يسجل ملاحظة مستبصرة على فيلسوف كبير. في إحدى نقولاته المقارنة الجميلة ذكر إن الدنمركي ينتج غذاء 120 إنسان، وقد أنتج لنا وعمل واستوعب هو جهود جماعات من المثقفين، وأثمر جهده ومواهبه حرية لقومه، وغذاء فكريا للناس في بلاده وفي العالم، ثمارا ثرة لذيذة متنوعة، يشير إلى تكوينه الثقافي قائلا:"لقد اعتمدت اعتمادا كبيرا على القراءة بدلا من الدراسة –وأشار في مذكراته إلى إستهزاء أستاذ التاريخ وكان صربيا يتندر ويستهزئي بالمسلمين ولعل هذا مما أثار الرغبة في البحث عنده-عندما أصبحت في المرحلة الثانوية فكنت أقرأ كل الأعمال الفلسفية الأوروبية الهامة وأنا لم أتجاوز الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة.. ولم يعجبني هيجل وقتها.. أما الأعمال التي تركت أثرا في وانطباعا لدي فكانت كتب بيرجسون، "التطور البناء الإبداعي"، و "نقد العقل المجرد" [لكانت]، وكتاب شبنغلر انحطاط الغرب. "

نجد أن مجموعة الكتب والتراجم والاعترافات التي قرأها والأفلام التي شاهدها، ولخص منها تمثل رقما قياسيا، وعمله السياسي والفكري والاجتماعي شاهد للعيان على قدرته على الإطلاع الواسع وعلى الاستيعاب والإنتاج، وكان جده في حياته في أعماله اليومية حتى اليدوية خير شاهد على تفانيه فيما يعمل وما يحب أن ينتج أو يصل إليه، من أمثلة ذلك: أنه عندما كان يعمل في شركة بناء ذكر أنه في فترة ما قبل افتتاح المشروع يصف جهده ووقته: "كنت أصحوا في الرابعة فجرا وأعمل إلى العاشرة ليلا".

كان صاحب حضور سياسي واجتماعي مستمر في أحداث بلده، مع حضور ومعرفة بالقضايا الدولية وموقع بلاده منها؛ وكأنه يعمل على طريقة: "اعمل محليا و فكّر عالميا". وكان واسع الأفق تحدث عن هذه السمة من عرفه، ويراها عيانا من يقرأ كتبه، فهو قادر أن يمزج الملاحظة الفنية بالنفسية بالسياسية، وباللغوية وبتدبر مصائر الأمم الكبيرة عبر القرون الخالية.

ومرت عليه السنين والسجون القاسية والمذابح، وأخذت من قوة بدنه، ولكنها زادت من وعيه، ومن نضجه، ووسعت أفقه وسمو روحه، فكأنها كما قيل:

وأرى الليالي ما طوت من قوتي ردته في عظتي وفي إفهامي

إن نباهته وعزيمته وحميته، وحرصه على تحرير فكره وأمته، وعلى معالي الأمور صنع له أعداء حاقدين فوق ما تخيل، وكأن نيتشة يصفه كما نقل هو عنه: "وما الإنسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر، عدو القيود، الذي لا يتعبد –للناس- ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب." (ص. 28) قد تكون عبارة نيتشة مبالغة، غير أنها ليست بعيدة عما أضمر له الصرب الفاشيون، ولا تبعد من حقيقة طباع بعض الناس، فالراكدون والمنتفعون والمتعصبون يكرهون الرجال الأحرار، لأنهم يحرجونهم، ويوقفونهم على حقيقة حال يعرفونه ولا يحبون كشفه، لما يسبب لهم من حرج أخلاقي مع أنفسهم ومع الناس. ينقل لنا علي عزت ذلك النص ويسكت!! وإنك لتجد هذا المثقف المتحضر شجاعا مرتادا لغاب الفكر المتوحش، تأمنه لما تعرف من إيمانه، وتخشى مغامراته المرعبة مع الجميع، لا يقف عند كبار المفكرين، ولا كبار الفنانين، بصيرا بالعقول والأرواح، فقراءة فكره لا تخلو من مغامرة، تعود بحلاوة ولذة، وربما تبقى معك العمر كله.

لماذا الحرية عند علي عزت؟

لأنها كما يقول روسو "الحرية أشرف خصائص الإنسان." ولأنه: "لا يوجد إنسان لم يمتلك الحد الأدنى من الحرية." (ص. 98) وبها تميز عن الحيوانات والجماد، وللإنسان أن يحتفل بمميزة عظمى له، يرتفع بها عما يشاهد من حوله، ويمجد دور واحد من رجال الحرية فكرا وعملا، قاد قومه نحو الحرية، وسجل نصوصا لها هي من أجمل ما جمع جامع ونقد ناقد في الفكر الأدبي السياسي الحديث. نمط الحرية عنده نمط فريد، ونمط شامل، وتأهيله لخوض غمارها كان أكبر تأهيلا:

- فهو من الأقلية المسلمة بين أكثرية مسيحية.

- وهو من ممثلي القومية المسلمة –وإن كان أصله من بلجراد- بين قوميات متنازعة (مع وجود جدل في حقيقة المسألة العرقية، والغالب أن السكان من عرق واحد، ولكن الحصاد الواقعي العملي يجعلنا نعتبر الخلاف المعلن بين الأعراق صناعة دينية، بحثت عن تفسير تقبله تلك الثقافة العنصرية، مع وجود بعض الملابسات في تصنيف القوميات زمن حكم "تيتو" سبب بعض المشكلات لاحقا.

- وهو مسلم تحت جبروت الحزب الشيوعي، تحرر من مسلماته الفكرية، ومن استسلامه لحتمية التاريخ، وأنكر وجود قوانين للتاريخ، ولما عادت تلك المسلمات بقواعد دينية مسيحية، أو قوالب عالمية في

"صراع الحضارات" أنكرها أيضا لأنه يؤمن أن التاريخ على الأقل ـبمقدار- مجال من مجالات الحرية البشرية، ولهذا فإن مساره لا يمكن التنبؤ به. " والسبب عنده "..لأن الناس في الأحداث التاريخية لا تحركهم المصالح فقط وإنما المثل، ولهذا لا يمكن التنبؤ به، لأن الروح تتدخل في الأحداث التاريخية، فالإنسان يندفع بالآلام وبالمصالح، ولكنه ليس عبدا لها. " (ص. 121)

- وهو منفتح التفكير والثقافة بين المسلمين الملتزمين بالتقليد؛ فما إن تزحزحوا قليلا من تقليد الفرق والمذاهب والتقاليد والعادات البائدة قليلا إلا ليقعوا في تقليد ثقافات غيرهم الغالبة عليهم عسكريا . ومواجهته لذلك الركود عمل تحرير مشهود.

- وهو يبحث عن خط جديد للثقافة الإسلامية، التي يؤمن بها روحيا، وعقليا فقد هدته ثقافته غير الإسلامية والإسلامية إلى أن الإسلام هو الطريق الوسطي السوي بين "الروحانية المسيحية "التي شوهتها ثقافة الإمبراطورية الرومانية المنهارة، والمادية الأوربية بأحزابها وفلاسفتها وفنونها المادية، وبين روحانية وتصوف وسلبية روحية وسياسية غزت الثقافة الإسلامية، وأضعفت تميزها، ولذا كان حاسما في نقد ثقافة المسلمين، ونقد روحانية الغزالي "الوافدة" على المسلمين في تقديره، روحانية ساهمت في صناعة قرون من الظلام للعالم الإسلامي مشابهة للعصور المظلمة في أوربا؛ ففي ملاحظة يسوقها غابرييلي على بعض

الروحانيات المسيحية في كتاباته، أن المتعصبين أحرقوا علناً في ساحة طليطلة كتاب: "إحياء علوم الدين" للغزالي ، لأنه لم يكن يعبر عن الإسلام كما يجب، ثم يسوق ملاحظة لغابرييلي ويؤيدها : فقد كانت أعمال الغزالي غذاء روحيا للمسلمين خلال القرون السبعة اللاحقة. وبرأيي فإن هذا الغذاء حرف العالم الإسلامي عن القضايا الواقعية- الاجتماعية، وحتى عن العلم، وصنع من القرون اللاحقة إسلام (القرون الوسطى) " (ص. 308)

كما يشير إلى خطورة الثقافة البعيدة عن الكون القريبة من مزاج البراهمة، حيث يرون المعرفة رؤية إلى الداخل، بينما نصوص القرآن تخرج الإنسان للنظر في الكون، فآل تعليمنا [إلى] غياب عن العالم، وإلى قبوع في أعطاف الكتب، واستسلام لما حفظه المعلمون دون دراية ولا تجربة للحياة، مصادمين لهدي القرآن، في السير في الأرض ومعرفة العالم الحسي، أما الغرب فينقل عن أحد مربيهم هذا الفرق، بين ما حل بتعليمنا وما غيرنا عليه؛ الطالب في بلاد غيرنا يتجه للكون أكثر: "إنه النظر ومشاهدة الطبيعة والمجتمع والناس... الاهتمام بالعالم الخارجي"

ويرى أن التعليم الصادق يحرر الناس، فبين التعليم والعبودية تناسب عكسي ، ولكن أي تعليم؟ إنه التعليم الذي لا يعتمد التلقين، بل الفهم، وممارسة المعرفة الكونية الحرة من قيود التقليد.

- وهو صاحب رؤية وتوجه للخلاص من هيمنة نظام عالمي قديم، إلى عالم جديد، وليس العالم الغربي المعادي للمسلمين، ولا عالم الشرق الإسلامي الذي بدأ يتلذذ العبودية للغرب، ويطمح باستحياء للاستقلال، وقد لا يستطيع -بسهولة- وضع رؤية للخروج، وإن رآها فإنه لا يجرؤ على القول بها.

- وهو مناضل جبار ضد الشر، ولنقرأ له هذا المقطع: "عندما تعايش كل شيء وتحتمله، وعندما تنهض ثانية بعد مئآت الكبوات، عندما ترفض الآمال الكاذبة والمواساة، وتضغط على أسنانك، لكي ترى الحقيقة بشكل واضح، وبعيونك، عندما تفهم بأن المعنى الوحيد للحياة هو في النضال ضد الشر. وفي هذا النضال يمكن عمل القليل، ولكنه الشيء الوحيد الذي بمقدورنا. خارجها هو السقوط الأبدي." (ص 63) إنه النضال والنهوض لهدف صحيح هو ما يصنع لنا حياة خارج أجسادنا وأنانيتنا، ويعطينا قيمة وأثرا في هذا العالم.

حاله ينبئ عن عقل هادئ متفرد، يحب بعمق كبير، ويقرأ ويتأمل، ويعمل بجد، وبعاطفة حية لاهبة، ونستغرب هذه الأبعاد المتعددة في شخصه، مع برودة عقله وقوة عاطفته، وحياته الروحانية الدينية الغنية ووعيه الكبير، وإدراكه الواسع للآداب والفنون وصلابته في الحرب، حتى لتكاد أن تقول هو رجل المتناقضات، ولكنك بعد أن تستوعب طاقاته المتعددة، ومساهماته الفكرية والخلقية والروحية والجهادية، وبعد أن تسير معه في

دروب حياته المتنوعة التي يشق على الفرد أن يسلك بعض تلك المسالك، فضلا عن بلوغه الغايات البعيدة في عدد منها، فإنك بعد معرفته تستطيع أن تجد له صورة متكاملة متناسقة، وتعلم أنه منسجم جدا، ومتزن جدا، وصاحب رؤية وغاية وأمل وعمل، لم يتأخر أحدهما عن الآخر.

تنتهي من دراسته وقد عرفت أنه قادر على أن يبصر الطريق وأن يهدي المجاهدين والمناصرين وأن يقول من هنا الطريق، وأنا أمامكم بالنور أحمله، وبالنفس أضحي بها، وبطمأنينة القلب وحسن التقدير، والشفافية، ورقي العلاقات واتساعها. وأنت تقرأ سيرته وترى فكره فتتذكر:

ومن كملت فيه النهى لا يسره نعيم ولا يرتاع للحدثان

- لم يدرس دراسة منهجية في جامعة إسلامية، وكان محبا للمعرفة الإسلامية، فنجى من التعليم التلقيني، إذ التعليم التلقيني عدو للحرية، بحكم صياغته وروايته والعقل الذي قد يلتزم بالرواية ويجافي الفهم، ولا أقول الدراية، لأن الدراية بحسب ما آلت إليه لدى كثير من معاصرينا أصبحت رواية لدراية السابقين، مع استقالة عقول المعاصرين. وكان ابن هندو يقول: "إن من الناس من يغلب دينه عقله، ومنهم من يغلب عقله دينه، ومنهم من يتم له ذلك كله، ومنهم من يخلو من ذاك كله." ولعل عليّ كان ممن تم له ذلك كله.

- تحرر من أفكار المسلمين في الماضي والحاضر، فهو مع الغزالي منتقدا عليه موقفه الروحاني، ومع محمد أسد ينتقده في تشدده ضد فساد الغرب، ويقول :" أنا شخصيا أعتقد أن طبقة رقيقة من المجتمع الغربي فاسدة ومتحللة، وأن الغالبية العظمى من الناس العاديين يدرسون ويعملون بجد، ويعيشون من أجل أسرهم. إن الغرب قوي، والمجتمع الفاسد لا يمكن أن يكون قويا. " ثم يكتب ملاحظة عميقة على أفكار ذوي الطموح في مجتمع مثالي، يقول فيها: "ليس غايتنا الإنسان المثالي، فضلا عن المجتمع المثالي نرغب فقط بأناس ومجتمع عاديين، وليحمنا الله من بعض الكمال." (ص 389) فقد كان يدرك الحدود التي تسمح بها أوروبا من الإسلام، ويدرك أيضا أن خيالات بعض المسلمين في نشدان الكمال قد تزيد عن الإمكان، بل عن الإسلام نفسه.

- وتحرره من التعصب الأعمى لشيء، حتى لبلاده؛ فهو مواطن صادق يقول: إنني أحب يوغسلافيا ولكن ليس حكومتها." ولم يكن أنانيا نرجسيا يسلط الأضواء على ذاته، بالرغم من مؤهلاته الذاتية للشهرة؛ كان كثير من الصحفيين والمثقفين يهتمون بأن يتحدثوا عنه، ولكنه كان يصر على صرف الحديث إلى مشكلات البوسنة، ويقول: "لا أحب الحديث عن علي عزت ولكن أود الحديث عن البوسنة ومستقبلها".

- ومن حريته تحوله عندما تكون الحرية في التحول، في الآراء أو المواقف، ويشرح ذلك: "في بعض الحالات يبدو لنا الجانح كرجل حر،

والرجل الأخلاقي عبدا للقوانين. وفي هذا الاختيار يكون إعجابنا التلقائي هو إلى جانب الرجل الحر. يمكن أن تشفق على العبد، ولكن لا أحد يرغب في أن يتماثل معه." (ص 47)

- ومن حريته تعدد اهتماماته، بالناس، وبالدين، وبالسياسة، وبالعائلة، وبالفن وبالتاريخ، وبالفلسفة، وبالفلك، وحتى بملامح الوجوه وأصول الأعراق؛ كما يحدثنا عندما يتفحص وجه شخص مثلا في سيرته الذاتية أكثر من أنموذج، وهذا الإتساع في الاهتمام تحرر من ضيق الأفق، ومن ضيق العمر وصغر الحياة؛ ويحسن أن ننقل هنا نصا معبرا عن أثر تعدد الاهتمامات في سعادة الإنسان ورضاه؛ يقول برتراند راسل: "لا يمكن أن يصل الإنسان إلى الرضا إذا ما اهتم بعنصر واحد من عناصر الطبيعة البشرية على حساب كل العناصر الأخرى، ولا في النظر إلى العالم كمادة خام لعظمة الذات. " وبهذا تخلص من الأنانية القاتلة؛ "فالانغماس في الذات لا يؤدي إلى أي نشاط تقدمي. " ونجد كما أشار كثيرون إلى أن السعادة والتأثير مرتبطان بالخلوص من قيود الذات إلى الاهتمام بالآخرين ومشكلاتهم، وإلى اتساع رؤية الإنسان واهتماماته، وهناك علاقة وثيقة بين الهمّ العام والجد فيه وقدرة الإنسان على الإنجاز، وتتضاعف جهوده وآثاره، برغم وقته القصير، ولهذا فإن الإنسان المشغول هو الأكثر فائدة وأثرا، والفارغ أقل، بل معدوم التأثير، ويقولون ابحث لعملك عن مشغول ينجزه!! أما إذا فرغ الإنسان فقد قل عمله وربما قلّ أثره.

- ويدرك تنوع معنى الحرية بحسب حال من يطالب بها: عندما علم الكاتب المسرحي هنريك أبسن بتحرير روما لم يكن مسرورا بشكل خاص، وقال إنها رغبة جميلة لن تتكرر باتجاه الحرية.. وعليّ أن أعترف، لأن النضال من أجل الحرية هو الشيء الوحيد الذي يعجبني من الحرية، استعمال الحرية لا يهمني".. ثم يعقب عليه علي عزت ويقول: "هكذا يفكر الإنسان الذي يعيش في الحرية، ولا أعرف إذا كان: (إبسن) سيفكر بالحرية لو أنه في مثل ظروفي. [في السجن] (ص 46)

- وكان صادقا ملتزما بما يطرح من أفكار ومن شعارات، لا يقبل أن يقول شيئا ويسلك سواه، وهذه غاية في الاستقامة، والوفاء لمبادئه، -وإن شق الالتزام بها-، قد لا تليق بمفهوم رجل السياسة، فقد حرص على حرية الصحافة في الوقت الذي كانت تضر ببلاده، وقد طالبه القادة العسكريون أثناء الحرب بإنهاء حرية الإعلام ولكنه أبى، فلما تحدث أحد المسؤلين لتلفاز أجنبي وقال ليس في سراييفوا ما يكفي من الطعام لبضعة أيام، لامه القادة على السماح بحرية الإعلام بمقابلة الناس، وكشف ضعف المدينة للمحاصرين، ولكنه أصر على أن الحرية خير لنا. كما انه التزم قبل كل المواجهات ألا ينتقم من الشيوعيين في البوسنة، واختلف مع زملائه، وأصر على موقفه مع بعض من وافقه. وأكد أن موقفه ليس فقط موقف مبدأ ولكنه أيضا موقف إنتاجيا، فالمنع والحظر والقوة لا تنتج شيئا عندما نريد إقناع الناس، ويوسّع مفهوم الآية "لا إكراه في الدين" إلى أنه ليس فقط فيما يتعلق باعتناق الدين، بل "لا إجبار فيما يعتقده

الناس ولا إكراه، لقد كان الشيوعيون مستعدين لاستخدام التهديد لإيقاف بعض الأفكار وحتى استخدام الضرب والشرطة والسجون. "

تحرر من كثير من المفاهيم السائدة حتى في التعريفات الثقافية، والتقيد بأقوال الناس، فتجده مبدعا في قوله أو اختياره؛ فمثلا الثقافة يراها المعرفة الفردية، وهي تهذيب فردي داخلي، أما الحضارة فهي موقف جماعي خارجي، وأنت ترى مصداق هذه الفكرة في شوارع المدن العربية، فترى أكبر مثقف يدخل مع الناس، الأمي والعارف، في معركة شرسة بالسيارة يوميا وطوال الوقت في الشارع، ويمارس أسوأ الأساليب في التعامل، وهنا ترى المستوى الحضاري العام للمجتمع، ولكن السائق في ذاته قد يكون ذا معارف واسعة جدا، أو مكانة اجتماعية كبيرة، ولكن الحضارة غائبة، بينما تجد عكس ذلك في بلدان متحضرة، لا تخاف من خروجك بالسيارة في الشارع، لا فرق بين أميهم ومثقفهم. والحضارة هي صورة المجتمع وسمته العامة: يقول: "لا توجد إنسانية بدون شخصية جماعية، ولا حرية بدون شخصية جماعية، وكل إنسانية وكل حرية هي قبل كل شيء حرية وإنسانية الفرد الحر والشخصية الحرة" (ص. 197) فـ "الشعب المتحضر بالفعل لا يقبل الاستبداد.. ويضع السلطة تحت قانون الرقابة.. فقط في الشعوب المتخلفة السلطة فوق القانون. " (ص. 192)

وفي مكان آخر يرى الحضارة هي الإنتاج المادي، واستمرارا للتقدم التقني لا الروحي، وهي استمرار للتطور في العناصر الآلية، أي العناصر غير الواعية في الإنسان.. الحضارة استمرار للحياة الحيوانية

ذات البعد الواحد، التبادل بين الإنسان والطبيعة، ويختلف عن الحيوان في الدرجة والمستوى والتنظيم، الحضارة تعني: فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة.. ولذا فإن الحضارة ليست في ذاتها خيرا ولا شرا، وعلى الإنسان أن يبني الحضارة تماما كما عليه أن يتنفس أو يأكل، إنها تعبير عن الضرورة والنقص في حريتنا، أما الثقافة فعلى العكس من ذلك: هي الشعور الأبدي بالاختيار والتعبير عن حرية الإنسان.. وهي تأثير الدين على الإنسان، أو تأثير الإنسان على نفسه، الثقافة: ماله علاقة بالدين والمقدس، من فن ومسرح وحرية وفلسفة. الحضارة مبالغة في الإنتاج والاستهلاك، شعارها: "أطلق رغبات جديدة دائما وأبدأ" بينما الثقافة (وفقا لطبيعتها الدينية) تميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان، أو الحد من درجة إشباعها، وبهذا توسع من دائرة الحرية الجوّانية للإنسان، وهنا تظهر حالات التنسك الزائدة عند الرهبان، وقلة أو عدم النظافة عندهم –أو الإهمال- عند الخنافس في العصر الحديث.. حامل الثقافة هو الإنسان[الفرد]، وحامل الحضارة هو المجتمع، ومعنى الثقافة القوة الذاتية التي تكتسب بالتنشئة، أما الحضارة فهي قوة على الطبيعة -وفي النهاية يصل إلى أن-: كلا من الثقافة والحضارة ينتمي أحدهما للآخر. والحضارة لا تعني ارتفاع الأخلاق فقد كان البرابرة يعاملون عبيدهم خيرا من معاملة الرومان لعبيدهم . وتعتبر الدولة الرومانية القديمة أنموذجا مناسبا لرسم خط فارق بين الثقافة والحضارة "

والفاعلية هي شعار المثقف الحر، لأن السلبية وأهلها لا يمكن وصفهم بالأحرار، ذلك أن الذي لا يعبأ بشيء شخص متجرد من الخير، فالإنسان الذي يحمل الأشواق والطموحات والآمال يجلب الخير للعالم، وعزت كان عمليا وليس مثاليا، كما يتبادر من سمعته وشهرته الثقافية، لا بل كان مرنا ومتخذا لأسلم الطرق وانفعها: "سلام جائر خير من حرب مهلكة"

وهو لم ييأس بل احتفظ بأمل كبير، ويرجو أن يسطر المسلمون البوسنيون والمسلمون عموما في أوربا مساهمة رائدة جديدة في المجتمع ومستقبل التاريخ الإسلامي والإنساني؛ فيتعامل مع أفكار الحرية والمجتمع المفتوح التي دعا إليها "كارل بوبر" باهتمام، ويرى أن على المسلمين في أوروبا أن يستفيدوا من هذه الأفكار، وبخاصة من فكرتين رئيستين: أولاهما: فكرة المجتمع المفتوح: " فالمجتمع المفتوح يتضمن حرية الفرد وشخصيته وتصوره وحرية تفكيره وحقه في نقد المؤسسات السياسية والتبادل الحر للأفكار، لم لا يشارك المسلمون في هذا؟ وفوق ذلك تحض أفكار "بوبر"على التسامح، وتقف ضد السلوكيات البربرية في أوروبا التي غالبا ما تستخدم ضد المسلمين الموجودين في تلك القارة."

المطالبة بالانفتاح ستكون وسيلة إسلامية ناجحة لنيل حقوقهم في المجتمعات الأوروبية المنغلقة أو التي تتجه للانغلاق، ووسيلة للتفاعل والاستفادة من الآخرين، فلا مبرر لاستمرار الخوف من الانفتاح عند

المسلمين كما في السابق، فهم اليوم أقوى عددا وفكرا مما كان. وبسبب ما يعلمه الغربيون من شرور في الانغلاق فإنهم يسعون للتحكم في الانفتاح الضروري!! كما يرددون، ليتمكنوا من تحديد نوع الأشخاص والأفكار المقبولة، في عالمهم وعالم غيرهم. إن من الأنفع للجميع أن يتسامحوا في الانفتاح المتبادل، لتتقارب مغانم البشر من أعمالهم ومن علاقاتهم.

والفكرة الثانية: "فكرة: "النهضة الأوروبية الجديدة"، التي دعا إليها الفيلسوف الألماني (فايتساكر) تختلف هذه الفكرة عن النهضة الأوروبية الأولى في الالتفات نحو عوالم وثقافات خارج أوروبة، وبالتالي_وفقا لهذا الفيلسوف- فإنها ستلتفت أيضا نحو الإسلام، وثقافته وحضارته. وأعتقد أن علينا دخول هذه اللعبة، ألم يطالبنا القرآن الكريم بقوله: (فاستبقوا الخيرات) المائدة، 48. لكننا لا نستطيع استباق الخيرات إلا حين نقوي وعينا بهويتنا فقط، فالمسلمون الواعون يكونون مستعدين للأخذ والعطاء، دون التخلي عن قيمهم الحقيقية الأصلية. "

ثم يشير إلى ارتفاع مستوى المعرفة عند مسلمي البوسنة مقارنة بالشعوب الإسلامية، ومحافظتهم على ذواتهم دون ذوبان في أوروبا التي كانت قاسية عليهم، فقد دُمّر للمسلمين ألف مسجد و343 مؤسسة ثقافية. ولكنهم استعادوا كثيرا من قوتهم وزيادة بعد المذابح والتدمير. ويكفي أن نعلم أنه كانت في مدينة بلغراد التي نزحت منها أسرته أكثر من 250 مسجدا لم يكد يبقى منها شيء.

ولمدينة سراييفوا مساهمات كثيرة في سجل الفكر الإسلامي تتميز عن جميع مدن البلقان، ولعلمائها المسلمين "البوشناق" حضور كبير في الثقافة الإسلامية بعد إسلامهم، وكان بها مكتبة من أهم المكتبات التي حفظت الثقافة الإسلامية في أوروبا.

الحرية –عنده- لن تأتي بقرار "من فوق (بالمراسيم) وهي غير ممكنة –بهذه الطريقة- وليست [حقة]، الحرية لا تعطى وإنما تؤخذ" (ص. 147) وينقل عن هكسلي: "لابد من دعوة الناس أو تعليمهم الحرية كشيء راق وأصيل، إنها ليست طبيعية، وإنما حالة تستنبت، يمكن لأكبر عدد من الناس أن يغيروها إلى الاستقرار واللذة، وتاريخ القرن العشرين يشهد بذلك." (ص. 132)

إن تهاون الناس في الأخذ بحريتهم يوردهم موارد الشر والموت والهزيمة، أو الإيقاف عن صعود سلم الرقي البشري، والبقاء في مهاوي الجهل والتبعية، لقد كان من أهم أسباب الشر الذي تعرضت له ألمانيا على يد هتلر أنها تهاونت في الأخذ بحريتها في العشرينات والثلاثينيات، حتى استعبدها النازيون الألمان، فقد يخاف الناس من مسؤلية وتبعات الحرية فيتهاونون بها حتى يتجردوا منها، فتفتح عليهم أبواب جحيم الاستبداد!!

في زماننا نجد أن العجز عن الخلاص من الديكتاتورية هو من الأسباب التي جعلت بعض الشعوب ضحية إرهاب الاحتلال –ولا نهون من دور الإرهاب الذي قهر قلوب الناس وروع عقولهم حتى أسلمهم ضحايا لأعدائهم-. بعض من هذا الموضوع أشار إليه كتاب لـإريك فروم : "الخوف من الحرية" الخوف منها لأنها مسؤولية يخشى ممارستها وتبعاتها، ولأنها اختيار وتبعات ملتزمة.

وفيما يخص المسألة الألمانية –وهي هاجس إريك فروم- وموقف الألمان من النازية، ومن سيطرة هتلر وحزبه، فهناك تفسيرات أخرى لا نحب التوسع فيها ولكن نشير إلى قضايا منها نضوج الديموقراطية، والتمرس بها، وإلى مسألة الأمل الذي مثّله الاستبداد للشعب في الخلاص من مهانة الحرب العالمية الأولى، والتعويض المعنوي والمادي الذي أمّلوه من الحزب، وربما أحبوه لذلك، وهذا ما يثير نقاشا موجعا ومفيدا لبعض الأطراف كاليهود، فبعضهم يرى أن الشعب الألماني شعب نازي، وأنه كان متفقا مع سلطته، لا مختلفا عنها في المواقف. ولكننا نعلم خلاف ذلك أيضا، وأن الألمان حاولوا الانقلاب على هتلر، وكادت إحدى محاولات الاغتيال أن تنجح، وكان قادة المحاولة من كبار رجال الحرب والحزب.

و الناس أحيانا قد تصدهم حالة من اليأس لا تجعلهم يشاركون في السعي للحرية، فقد ذكر المراقبون أن كثيرا من البولنديين لم يشاركوا في "حركة التضامن" التي قادها فاليسا بسبب اليأس من الإصلاح ومن التغيير، أو أن الإعلام المستبد ينوّم الناس تنويما مغناطيسيا عاما. (ص. 175-178) ويؤكد لهم أنهم في أقصى العبودية يكونون أحسن الناس حالا، وأنها خير لهم من التحرر. يقول شيلر: "إن الحرية وليست القوانين هي من تصنع الناس الحقيقيين.. كل نهضة تبدأ بالشعور بالاحترام تجاه الذات نفسها" (ص. 165). وفي مجتمع غير حر، تسوده رأسمالية طاغية، يقع المحظور الذي حذر منه روسو في العقد

الاجتماعي: "لا يسمح لأي مواطن أن يكون ثريا جدا لكي يشتري الآخر، ولا فقيرا جدا حتى يمكن بيعه." (ص. 193)

والحرية تصنع الأفكار الخاصة للأفراد، وتفتق عقولهم وألسنتهم، وبغيابها يسود تماثل الأغبياء، والكثير من التربية الموحدة والغلو في توحد الأفكار يجافي الحرية، وعند منع الناس من التعبير عن أفكارهم فإنهم يهربون من تطوير الأفكار، وعندها ماذا يبقى لهم من سمات البشر؟

والحرية عنده تحرر "من إلحاح المسيحية أن تجعل الإنسان ملاكا، ومن الماديين الذين يريدون أن يجعلوا الإنسان حيوانا" كتب هذا عند قراءته للآية: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس" الآية. (ص. 327)

الحرية -كما نلاحظها من فكره وعمله- هي الخلاص من شتى سلوك المستبدين المختلفين. وهجرة للأدب وللقراءة من اليأس وانتظار الزمن. الحرية أن تستطيع أن تخدم الناس وتعينهم. وهي حرية الآخرين؛ تقول روزا لكسمبرج: "الحرية هي حرية الآخر." وهي رعاية للخصوصية؛ "إذا زالت الخصوصية فنحن في معتقل. " (ص. 27) وهي أن تجوب ثقافات العالم، وتبقى ممسكا بعقلك واختيارك. وهي إطلاق للبدن من السجن، وهي خلاص الروح من العبودية للمادة، وتنقية العقل من التعصب الديني والمذهبي والفلسفي، بل وأن تحترم حتى التظاهر

بالجنون المفيد إذا كان يخلصك من الجور؛ كما حدث من بعض حيل زملائه في المحكمة، كان رجلا حكيما فتظاهر بأنه أصم وأبله في المحكمة ليتخلص من الحكم والسجن فأفرج عنه القاضي، ولما أصدر القاضي حكمه ودع زملاءه: "في أمان الله" وانفجر جميع الحضور بالضحك باستثناء القاضي والمدعي العام بالطبع، وخرج حرا !! ولكأن هذا المسلم الذكي البوسني قد استوعب أنه: " توجد أشياء تؤدي بك إلى أن تفقد عقلك، وإلا فإنه لا يوجد لديك ما تفقده..(فـ) رد الفعل غير السوي إزاء موقف غير سوي هو استجابة سوية " وأحد علماء المسلمين تظاهر بالجنون عشر سنين ليتخلص من إرهاب الحاكم بأمر الله (الفاطمي).

وفوق ذلك عدالة قضيته ولو في السجن، فقد كانت منبعا للشعور بالحرية والتسامي على سجانيه. وعلاقته الأسرية الرائعة بزوجته وأطفاله كانت منبعا للحرية والسعادة من نكد الحياة، وجزء مهم من كتابه: "هروبي إلى الحرية" سجل فيه مختارات من مراسلاته الـ 1500 رسالة، كشفت الكثير عن تماسك هذه العائلة، ورقي هدفها، ونبل الدور الذي تقوم به لنفسها ولبلادها وللعالم من حولها.

علاقته بالشبيبة الإسلامية كانت مجالا لممارسة حريته الفكرية، ثم إن صموده واستقرار فكره وهدفه على هذا المدى الزمني الطويل معهم لمما يلفت الانتباه، وكأنه يطبق الحكمة التي ساقها عن إبسن: "كن أي شيء تريد، ولكن كن ثابتا على ذاتك للنهاية." وقد يكون سبب ذلك

هو تحولهم معه في تحولات أفكاره، وبسبب تفوقه الكبير على زملائه، فقدرته وشخصيته وصدقه سمات لا تقاوم، بعكس ما نجد في الحركات السياسية والحزبية التي يتزعمها أشخاص قدراتهم متوسطة، ينمو الناس من حولهم، فسرعان ما يفقدون الفكرة والناس.

الحرية هي رعاية الأمانة، هي الاختيار بين الصون لما [نؤتمن] عليه أو الإهدار له، الحرية هي اختيار أن نرعى حقوق أنفسنا وحقوق الناس أو أن نهملها، "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا" ولهذا فإن الأخلاق سمة لمن يملك الاختيار، والثواب والعقاب فشرطها إمكان الفعل والترك. والأخلاق بمنظور عقلاني مضرة وغير مفيدة، ولا بد أن يكون منبعها من خارج الحاجات المادية للإنسان، ويرى أنه: "لا يمكن بناء الأخلاق إلا على الدين، ومع ذلك فليس الدين والأخلاق شيئا واحدا. فالأخلاق كمبدأ، لا يمكن وجودها بغير دين، أما الأخلاق كممارسة أو حالة معينة من السلوك فإنها لا تعتمد مباشرة على التدين.. ويؤدي الإلحاد إلى إنكار الأخلاق، ولكن أي بعث أخلاقي حقيقي يبدأ دائما بيقظة دينية. فالأخلاق إنما هي دين تحول إلى قواعد للسلوك، يعني تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين وفقا لحقيقة الوجود الإلهي. "

وعن علاقة العقيدة بالممارسة والأخلاق يقول: "وليس هناك علاقة (أوتوماتيكية) تلقائية بين عقيدتنا وسلوكنا، فسلوكنا ليس بالضرورة من

اختيارنا الواعي، ولا هو قاصر عليه. إنه على الأرجح نتيجة التنشئة والمواقف التي تشكلت في مرحلة الطفولة أكثر منه نتيجة للمعتقدات الفلسفية والسياسية الواعية في مرحلة متأخرة من مراحل الحياة. "

وله نقد مهم على نظرية داروين، ورؤيته الحيوانية للإنسان، ويرى في رصد داروين رصدا للجانب البيولوجي، ولكن ليس رصدا لتطور الإنسان.

روحه الحية، ويقظة عقله، وتنوع معارفه، ساعدته على سبر أغوار الروح، لأن سعة الثقافة توسع مدى الحرية، كما أن التجربة العملية التي مر بها من المصادمة ما بين فكرة الحرية وقيود الفكر الشيوعي، ثم الفكر القومي المتطرف، أو العنصرية المغلقة، وبين فكر يتجاوز قصة عنصر، ويتجاوز بلدان ويتجاوز ثقافات كل هذا أكسبه عمقا واستبصارا، وثقة جماهيرية وتسامحا نادر المثال.

الحرية أن يحب وطنه حبا صادقا ونقيا، يعرف ما يحب فيه وما يكره، ويجاهر بما يؤمن به بالرغم من صعوبة ذلك؛ ففي مرافعته أمام القاضي الشيوعي قال: "إنني أحب يوغسلافيا ولكنني لا أحب حكومتها، وإنني أكرس كل حبي للحرية.. أقر بأنني مسلم، وسوف أبقى مسلما، وأعتبر نفسي منافحا عن قضايا الإسلام في العالم..لأن الإسلام بالنسبة لي هو كلمة أخرى لمعاني كل ما هو خير ونبيل، إنه اسم للوعد والأمل بكل ما هو خير للشعوب المسلمة في العالم." ولأنه وصف نفسه وقومه دائما

بالمسلمين اعتبروه طائفيا وعنصريا وأمميا طموحاته أبعد عن بلاده، أو أقل إخلاصا لها.

في السجن بعد ثلاثة أعوام طلبوا من ابنته أن يكتب الطلب المعتاد: "أن أفكاري كانت خاطئة وأنني لا أنوي التعامل مع أي سياسة بعد ذلك، وأنني سأنسحب وأحيى حياة اعتيادية هادئة.. رفضت التوقيع" فأبقوه بعدها عامين آخرين.

شجاع لا يتراجع ولا يرتاع، ماض لما يريد إلى النهاية، محارب صبور، يصدق عليه قول المعتمد بن عباد:

ما سرت قط إلى القتـ ـال وكان من أملي الرجوع

قال: "يشكو الناس أن الحياة قصيرة جدا أما بالنسبة لي فتبدو الحياة طويلة جدا". ولو تأملنا العمل والفكر الذي مر به لقلنا لقد أخذ هذا الإنسان وأعطى الكثير كان غني الشخصية، واسع البال والخيال، أخذ من زمنه بلا حدود في عالم الروح والمعرفة، ولم يكن شرها للدنيا يستفّ من ترابها، عاش حياة بسيطة جدا، زاهية جميلة، ومهما طالت فقد كانت قصيرة، وهل تقاس الأعمار بالأعمال والمتع! لقد حاز من أرقى متعها الكثير، فكيف وقد كان قادرا أن يجعل من المأساة متعة وترقيا على الضعف وقصور النظر.

الحياة عنده ليست سجلا للأحزان، بل هي رحلة ممتعة، وهكذا يفهمها من الإسلام، ومن حياة العرب قبل الإسلام: "فالعرب كانوا ميالين إلى التضحية وملذات الحياة، الأمر الذي يمكن أن نلاحظه بوضوح في أشعارهم قبل الإسلام وكانت من هذه الناحية تمهيدا للإسلام. .في الثقافة الإسلامية توجد جمالية ملحوظة للحياة اليومية مؤسسة على الحواس، وهي تقدم الصدق لهذه الجماليات، ودافعية خاصة تختلف عما هو في الغرب، لا يوجد شك بأن هذا النوع من المشاعر تجاه الجمال (مرتبطة بتعاليم الإسلام) وتحديدا بالأحاسيس التي لا ينكرها.. الجزيرة العربية خلال القرون: الخامس إلى السابع للميلاد، بشروطها الحياتية القاسية وصحرائها، كانت مهيأة (لعلم السماء والأرض) وبدراسة الشعر (الجاهلي) يمكن البرهنة على ذلك. الأمر يتعلق بفضاء روحي، كان قريبا جدا من الإسلام، والذي سيجد في الإسلام أسبابه العقائدية وإشباعه .. شعر البدو قبل الإسلام يتحدث لنا بوضوح عن أخلاق شعب ناضج ويغنّي للقوة والرجولة، والتسامح وحماية الضعفاء، والتضامن والنضال، والشجاعة واحترام المرأة، والأخلاق العائلية، والمهارة والشعور بالكرامة.. البدو كانوا في الحقيقة مقاتلين، وفي البدوي العربي نموذج بشري كان بسبب خواصه الروحية والجسدية مهيئا أو فطنا للعلوم الجديدة .. وفي الحقيقة انتشر الإسلام روحيا وسياسيا وعسكريا بشكل غير مسبوق، وبما يشير إلى أنه تم التسليم بالإسلام واعتناقه من قبل

شعب ناضج واستثنائي، وبأن التعاليم الجديدة في مثال الإنسان المرتجى وجدت صورتها ومناسبتها عند العرب.. فالإنسان في القرآن لم يكن صوفيا هنديا، أو ناسكا مسيحيا نحيلا، أو جنديا رومانيا قاسيا. إنه الفارس الشجاع، المتسامح مع الأخيار، وغير الرحيم مع الأشرار "أشداء على الكفار رحماء بينهم" الآية والنص من: (ص. 304-306) " بينما يجد في تاريخ المسيحية كما نقل عن كتاب: "اسم الوردة" لإمبرتو إيكو: "لم يبتسم المسيح، ولا يوجد في أي شهادة عنه، ولا في أي تحليل فني من التحليلات المتعددة اللاحقة لصورته، لا يوجد ما يفيد أن المسيح كان يبتسم." ويقول: "الزهد بطبيعته مسيحي حتى عندما يطبقه المسلم حتى الزاهد أبو العتاهية يتعرف المسيحيون من خلال أشعاره على نوعهم وتدينهم ورؤيتهم للإنسان ومصيره على الأرض." (ص. 304-306)

والشجاعة كانت شعار المجتمع العربي قبل الإسلام، وعنها كانت الخطب والأشعار، يقول علي عن فضيلة الشجاعة: "لم يغنّ الشعب للذكاء، وإنما غنّى للشجاعة، خصّص الناس أحلى قصائدهم للفضيلة التي يقدرونها أكثر من غيرها، لأنها الأكثر ندرة من غيرها، فضيلة الشجاعة واحتقار الموت. وهذا يشمل الشعر في كل العصور من اليابان عبورا بالهند وفارس وحتى انجلترا وأمريكا." (ص. 63-64) فـ "جميع الناس -حتى الناس غير الواعين لذلك في دواخل أرواحهم- يعشقون الشجاعة، وعدم الأنانية، وعدم الاستغلال." (ص. 77)

تعريف الحرية

كان من المهم أن نستوعب معنى الحرية عند علي قبل أن نشتغل بسواه، فكما يشير (آير) في كتابه عن فلسفة القرن العشرين قائلا: "إنه لا يمكن أن نقبض على الحرية في تعريف " وبهذه الطريقة يبدو أننا من نقطة البداية نذهب للمجهول، وأرجو ألا توصلنا الفلسفات العدمية "أو الاسمية" إلى ما هو أبعد من ذلك.

وسبب التعريفات الكثيرة للحرية هو أهميتها وجلالها، العالم كله يتحدث عنها ويعمل لها، وكلما ضعف عقل الإنسان وقل احترامه لنفسه قل حديثه عن الحرية، وكلما علا عقله واستيقظ ضميره نشدها "فللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق." وهذه الدماء التي ضرّجت باب الحرية، فجعلته أحمر قانيا: منها يد وقلب وعقل علي عزت، نقترب منه واقفا على باب الحرية، يقود الناس، يطرق ثم يعاقب ويسجن، وفي السجن يتحدث عن محبوبته التي عشقها فأوردته ظلمات السجن، وفي السجن وجد شيئا ما كان يبحث عنه، فهل وجد الحرية حيث افتقدها الناس؟ إن هناك شيئا مشتركا في هذه الحرية وجده علي عزت كما وجده ابن تيمية من قبل وكما وجده سيد قطب، وكما وجده مانديلا، وظني أنهم صدقوا، لأن الحرية التي وجدوها وراء الأصفاد حررت قلوبا وعقولا وبلادا كثيرة خارج سجونهم في العالم الفسيح، فيا للإنسان الصغير الذي لا يرى أبعاد أثره الثقافي والنفسي ولا يستطيع تقدير أثر مُثلِه وخلقه وحال من يُقتدي به في

العالم، فكثيرون يمكن أن يحصروا شيئا من أثرهم، ولكن المعلم والعالم والكاتب ومن يسيّر الجيوش ذات الأفكار خاصة، لن يخطر بباله نتاج عمله وآثاره البعيدة؛ فقول ابن تيمية: "ماذا يفعل أعدائي بي فسجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة"، وقول سيد قطب: "أخي أنت حر وراء السدود أخي أنت حر بتلك القيود، إذا كنت بالله مستعصما فماذا يضيرك كيد العبيد، أخي ستبيد جيوش الظلام ويشرق في الكون فجر جديد، فأطلق لروحك إشراقها ترى الفجر يرمقنا من بعيد." كانت كلماته بالغة الأثر في حياة الناس من بعده، سواء كان فهمهم لها حقا أو باطلا.

هؤلاء المساجين في قيود السجن وغرف ضيقة جدا، وحرية مصادرة، ساعدوا في تحرير افكار الناس وسلوكهم والتأثير في مصائرهم؛ فتأثير ابن تيمية يكفي أن نرى جوانب منه أقامت الحركة الوهابية وفي السلفية المعاصرة في مواطن كثيرة، وأن نرى كل فصل من فصول كتاب: "معالم في الطريق" مؤسسا لجماعة عشقت تلك الفكرة فهمتها أم لا، ونرى علي عزت يغزو مجالسنا ويثير اهتمامنا على تباعد البلدان وتنوع اللغات، ويعطي بلده شيئا من الحرية التي سجن فوجدها.

يقول أحدهم "إن الحرية هي حرية أن تفكر وان تنقل أفكارك للآخرين، أن تقرر وأن تنفذ قرارك" .. والأمريكيون يرون في الحكومة العدو الطبيعي لحرياتهم، لأنهم في ثورة استقلالهم حاربوا الحكومة الإنجليزية، فلا غرابة أن تعاود الحكومة أي حكومة إنهاء حرياتهم.

ونلاحظ أن أي رئيس أمريكي يعد الناخبين في حملته الانتخابية أن سيعمل على تصغير الحكومة.

ويرى أريك فروم أن السعي للحرية كان هم الأوروبيين والأمريكان لأكثر من قرنين من الزمان. وفي أوروبا يرون التحرر هو من استبداد الحكومة والكنيسة، أما في أمريكا فهو في الأصل تحرر من المستعمر، ثم من خطر أن تأخذ الحكومة المركزية دور المحتل. ولعل الخلل الذي أصاب الحرية في أمريكا –في أيامنا-جاء من مناطق لم يعتد اليوم المجتمع الأمريكي أن تكون مولدا للشر ولا للاستبداد، فالكنيسة في أمريكا كانت من المؤسسات الأساسية التي مهدت للحرية والديموقراطية، ولكنها انتكست اليوم لتكون مع الشركات هي مصدر الاستبداد الجديد في المجتمع الأمريكي وخارجه أيضا، وهكذا: "فمن مأمنه يؤتى الحذر."

علي عزت أحبه مثقفو العالم وكرهه متعصبوه، أحبه المتعالون على العنصريات والدوغمائية الدينية وأحبه الأحرار. الحرية عنده لم تكن كلاما في تلفاز ولا محاضرة في جمع من المثقفين، بل كانت الحرية عملا تحريريا صادقا، واجه بها الأيديولوجية الشيوعية، ثم واجه بها العنصريين الصرب، أثبت أنه صاحب فكرة وممارسة، ليس وهما ولا تظاهرا بالوعي ولا بالثقافة التي يقف على قمتها.

عاصرنا أحزان البوسنة، وأكلت أحداثها القلوب، وكان الحزن لها مريعا، فكما يحدث في فلسطين منذ عقود نشهد المذبحة ولا نملك فعل شيء، وبعد زمن من تلك الأحداث، لم نكن نتوقع منها إلا جانب النضال والدفاع والثبات في الحرب الدينية العنصرية، ولكن ها نحن نجد البوسنة مصدر فرح وسعادة ومصدر تنوير ومتعة عقلية وروحية؛ كتب علي عزت عوّضت بأفراحها ومتعتها عن أحزان طويلة، ألمت بالباكين العاجزين عن فعل شيء لهم وقت محنتهم، حتى شمت الناس بالمسلمين في العالم، وأذكر أنني وقتها قرأت مقالة في جريدة بريطانية هجا العرب هجاء مقذعا فسلاحهم المكدس لا يصل لإخوانهم، وكلامهم نباح لا يتحول إلى عَضّ.

يلوح لي بعد أن قرأت كتبه وسيرة حياته وسمعت وقرأت أخباره وسمعته يتحدث في مقابلة طويلة، أنه كان عملاقا بين رجال عصره، وأنه حقق الحرية بأرقى معانيها لأمته بحسب ما ساعده زمانه ومكانه، وبحسب رجال عصره، وبحال المسلمين الخائفين في دنياه، وبحسب الحصار والإبادة التي كان شعبه هدفا لها. حقق حرية الروح حين تتخلص من عبودية المال، وعبودية المنصب، وعبودية تراب الدنيا، ومن قيود كتب الناس، وكانت الكتب والفن سبيلا للتحرير عنده، بعكس ما نراها عند كثير من مثقفينا، عندما تكون الكتب حملا وغلا من الأغلال.

لقد فقد أشياء كثيرة ولكنه ربح الحرية، كما يمكن أن يحققها عملاق في ظرف صعب جدا، وهل كان يمكن له أن يحقق الحرية لو ساعده الزمان بمنصب وثروة وحرية لبدنه؟ ربما، ولكنها ستكون منقوصة، مثلها مثل الكتابات المؤكدة الباردة.

عن كتبه

-كتاب: "البيان الإسلامي"، أو:"الإعلان الإسلامي" كتبه عام 1969م وكان جل الكتاب منصبا على العالم الإسلامي، وليس يوغسلافيا، ولم يرد ذكرها في الكتاب، فكرة الكتاب كما يشرحها المؤلف: "أن الإسلام هو وحده الذي يستطيع إعادة إحياء القدرات الخلاقة للشعوب المسلمة، [ودعا فيه إلى] العودة إلى الأصول والمنابع، وندد بالقمع، ودعا إلى مزيد من الإنفاق على التعليم، والابتعاد عن العنف، وضمان حقوق الأقليات، وتحسين وضع المرأة .. ولقد تلقى الغرب الكتيب بشيء من التحفظ. وأعتقد بأنهم لم يقدروا أن يتحملوا وجود الإسلام في صميم الحل وصلب الموضوع. " واعترضت الحكومة وكان من خطاب الدعوى ضده: أنه أكد فيه "أنه لا توجد حادثة واحدة في التاريخ لم تكن فيها حركة إسلامية حقة وأصيلة حركة سياسية في نفس الوقت. إن السبب وراء ذلك إن الإسلام أسلوب حياة متكامل " وقد كان الكتاب عبارة عن بيان عن فكرة وبرنامج المسلمين في البوسنة، وإن كانت صياغته عالمية.

- هروبي للحرية: وهو جمع من نصوص قرأها، وتعليقاته عليها، وأفكار بدأها، أو لاحظها. هناك من يحب إصدار أحكام سريعة، فيقول النصوص في الكتاب ليست لعلي عزت، كتابه هذا يشبه -ولكن بطريقة أعمق- طريقة الجاحظ، فهل تلبسون الجاحظ ثياب الأدب والثقافة وهو ينقل؟ أم نقول عن طريقته إنها تنم عن أنه ناقل عرو من الإبداع؟ هنا يحسن القول

إن عمل مفكر كبير ليس دائما في أن يصب عليك كلاما طويلا من كلامه في صفحات متتابعات زاعما أن القول قوله، فقد كان الجاحظ كبيرا ليس بسبب الجمع فقط، ولكن بسبب السنّة التي سنها أولا في الأدب العربي، ثم بسبب التعليقات والبناء والآراء المنثورة بين نصوص غيره وبسبب اللغة والأسلوب . وهي مشاركة كبرى متى قرأتها وعرفت قيمتها، فقد كان يسبك النصوص ويزينها بجواهر قوله وآرائه، وإن عَدم الجد بذل الهزل، أما كتاب: "هروبي للحرية" فهو مدى أبعد في المعرفة والنقد الفكري والأدبي والقانوني والديني والحضاري، والتفلسف؛ إنه كتاب على غير نسق سابق.

-السيرة الذاتية: وهي عدة أقسام؛ منها ما كتبه بنفسه ابتدءا، عن حياته الخاصة والعامة، وعن أحداث البوسنة، ومقابلات طويلة مهمة تلخص رؤيته لكثير من الأحداث والأفكار، وملاحق ببعض المحاضرات والمقابلات، وبعض نصوص الاتفاقات الدولية التي بشأن البوسنة، وكان له دور فيها.

كانت له اهتمامات ثقافية متعددة نوجز الحديث عن بعضها، ومن أهمها الأدب؛ قيل عنه قديما: "الأدب في الغربة رفيق"، وقد وجدته كذلك، أما علي عزت فكما كان هروبه العاطفي لرسائل أسرته التي قاربت أو زادت عن: 1500 رسالة" قال عن رسائل أسرته "كنت أشعر في اللحظة التي أقرؤها فيها أنني لست إنسانا حرا وحسب، وإنما كأنني إنسان أهداه الله كل خيرات هذه الدنيا" ولكن الأدب كان له دور مهم آخر: "كان الأدب هو هروبي الثقافي للحرية." (ص.19)

كان موسوعي المعرفة بالأدب والفن، فنجد النصوص التي نقلها والتعليق على المختارات التي كتبها مما ترجم إلى اللغة العربية يدل على جهد هائل، حتى لكأن هذا الإنسان طوال عمره لا عمل له إلا القراءة، وإذا تأملت ملاحظاته قلت: لا عمل له إلا التأمل في المقروء وإعادة صياغته بطريقة أسلم، ثم يتحف القراء والمثقفين بآراء هادية: "القراءة المبالغ فيها لا تجعل منا أذكياء، بعض الناس يبتلعون الكتب، وهم يفعلون ذلك دون فاصل للتفكير الضروري، وهو ضروري لكي يهضم المقروء ويبنى ويتبنّى ويفهم عندما يتحدث إليك الناس يخرجون من أفواههم قطعا من هيجل وهيدجر وماركس في حالة أولية غير مصاغة جيدا. عند القراءة فإن المساهمة الشخصية ضرورية مثلما هو ضروري للنحلة العمل الداخلي والزمن لكي تحول رحيق الأزهار المتجمع إلى عسل." (ص.

25-26) وفي مكان آخر من مذكراته ذكر أنه يأتيه نشاط للقراءة لمدة طويلة ثم يحل به خمول طويل! لعل هذا الخمول هو زمن الاستيعاب.

و بعد أن استغرق سنين في قراءة النصوص المتعلقة بالفنون التي وعاها، ثم كتب ونقل عنها ملاحظات في غاية النفع، بالرغم من استعصاء بعضها: " الفن مثل الحياة يستعصي على التعريف"..يقول بيكاسو: "عندما أعرف شخصيا ما هو الفن فلن أصرح بذلك لأحد ما، فسأحتفظ بذلك لذاتي. " ويعلق: "الفن هو معرفة الخاص، والفلسفة والعلم معرفة العام.. قوة العبقرية الفنية هائلة في الروح الإنسانية بحيث لا يمكن تعكيرها.. الفن وصل إلى قمة إنتاجه في العصر الطفولي للإنسانية في اليونان القديمة.. ربما لأنها كانت العصر الطفولي للإنسانية.. فن الهنود الحمر لمدة ثلاثة آلاف سنة كان مسخرا للدين." (ص. 330 -333) وسئل لينين: ما لذي سيكون بديلا للمعابد؟ فقال: المسارح، وقال غوركي إن الفنان سيأخذ مكان القديس. (ص. 134) [ذلك ما حدث فعلا للأدباء والفنانين الروس في العهد الشيوعي.] الفن نبوغ فردي لا يتراكم، بينما العلوم يمكن أن تتراكم وتتطور

وله نظرة ناقدة للأدب الذي يصور حيوانية الإنسان، فالإنسان يرى ويحس كثيرا بحيوانيته، ولكن عندما يصر الأدب على حشر الإنسان في هذا فإن الأدب يكون شيئا زائد عن الحاجة وخارج الموضوع، فما هي تطلعات الأديب الذي هو حيوان ليري القراء حيوانيتهم وحيوانيته، فإذا

كانوا حيوانات، أو هو يريد أن يكونوا فلم الجهد.. ثم يتنبه إلى ملاحظة مهمة مسكوت عنها وهي أن هذا الأدب الحيواني يبحث عن الإنسان، إنها محاولات يأس وعذاب واحتجاج تبحث عن الإنسان الذي ليس عاليا كما نود، وليس حيوانا كما يحب أولئك. (ص. 388)

وعن النقاد؛ يرى أن عملهم قد يكون مبدعا يُقرأ من أجل النقد نفسه، لا من أجل النصوص التي ينتقدونها، ومواقف النقاد قد يكون لها تأثير على تسويق الكتاب، ويبقى الكاتب المبدع لا ينفذ النقاد إلى أعماقه، ولا يؤثرون على إبداعه. (ص. 325)

ينقل عن كارل يسبرز نصا عن التلازم بين الإيمان والحرية: "عندما يكون الإنسان واعيا بحريته وعيا حقيقيا، فإنه في الوقت نفس يصبح مقتنعا بوجود الله، فالله والحرية لا ينفصلان... فإذا كان الوعي بالحرية ينطوي على وعي بالله، فيتبع ذلك أنه يوجد علاقة بين إنكار الحرية وإنكار الله. " ويرى أن الحياة الحقيقية وحدها لها معنى وأهمية، و"لذلك يستطيع الإنسان أن يدرس الفضاء (المخلوقات) وأن يبقى ملحدا، [ولكن] من المستحيل أن تفهم الإنسان بدون الله ومعنى حياته. " (ص.83) كشف لنا عن تجربة روحية تتكرر عليه، وهو المستغرق في قراءة ثقافة ربما بعيدة عن الإيمان، ويتأمل: "يحتار عقلي ويسأل دائما، ولكن قلبي كان يبقى دائما إلى جانب الإيمان. لحظات سعادتي كانت تلك التي يتوافق فيها عقلي وقلبي." (ص. 62)

الدين عنده: "هو انقلاب جذري، ومخرج الإنسان من الحالة غير الإنسانية، ولكن على خلاف الثورة، والتي تشكل مخرجا موضوعيا، فإن الدين هو انقلاب في الإنسان- إمكانية ذاتية." (ص. 104)

هذه حقيقة فالتغير النفسي الكبير الذي يقع في نفوس المؤمنين الجدد شديد الوضوح، يبدؤون الحياة وكأنهم أطفال؛ قلوب ناصعة وأرواح مرهفة، يتحسسون كل شيء بعين جديدة، وكل فكرة بمنظار جديد، أمور لم نكن نفكر فيها، نحن الذين نعيش إيمانا موروثا نراه ثابتا ومستمرا، وربما

باردا وكسولا، تبلد من كثرة التعود. ثم يقول عزت: " لا شيء أسمى وأعمق من الإيمان، ولا شيء أكثر غباء ومللا من بعض المؤمنين." (ص. 105)

نقل نصا طريفا لتولستوي، وقد هتف به أحدهم قائلا: هل الله موجود؟ فقال له تولستوي: وهل رأيت الجراثيم بالميكروسكوب "المكبّر" قال نعم،

قال وهل رأتك هي؟ أو هل لها أو هل تستطيع أن تراك؟ (ص.111) ويقول: إذا كان الله غير موجود فالإنسان غير موجود. (ص. 108) ثم يتحدث عن برنامج تلفزيوني رآه عن الزهور في المنطقة الاستوائية، وما توحي به من عجائب فعقّب بقوله: "شعرت وقتها بقربي من الله أكثر من أي وقت مضى عن طريق الصلوات.. إذا كانت الصلاة في الروح وليست في الكلمات والحركات فإنني أثناء مشاهدتي هذا البرنامج مارست أعمق الصلوات." (ص. 110) وبعد أن كتب عن زهرة وعن مكوناتها وطريقة عملها قال إن ذلك بالنسبة لي حدث ديني ممتاز، فالصلاة في داخل الروح وليس في خارجها، كان هذا صلاة حقيقية وصادقة أكثر من أي صلاة قمت بها في حياتي. (ص. 106)

الحب عنده

الحب عنده يعني: فعل الخير، بمفهومه القرآني، فالإنجيل يدعو إلى أن يحب الإنسان أخاه، ولكن القرآن يقول: "افعلوا الخير" سورة الحج 77 .

أحب زوجته "خالدة" حبا عارما، كتب عنه مرة لقد بلغ مبلغا يمكنني أن أضحي بنفسي من أجلها، وقد تعرف عليها عام 1943 وبقي في السجن ثلاث سنوات انتظرته حتى خرج ثم تزوجته، له منها ليلى وسابينا وبكر. ولدوا له قبل أن يبلغ الحادية والثلاثين. وكانت أسرته مثالا للحب؛ و"الحب الحقيقي يختار لسكنه القلب النبيل. القلوب الأنانية لا تستطيع أن تحب. " (ص. 39)

ومثالا للمودة وللتماسك، ووضوح الهدف في حياة إسلامية حرة ومناضلة لسيادة بلاده ودينه، ومثالا للجد والتفاني فيما اهتموا به جميعا، ومثالا للثقافة العالية، فابنته سابينا مثل للمرأة المثقفة، تجيد أربع لغات إلى جانب اللغات المحلية في البوسنة، وتعمل مترجمة، ونقرأ في مراسلات ابنه بكر ثقافة عالية، واهتماما نادرا، وكان مورد ثقافة أبيه في السجن، يطارد الكتب والمكتبات حتى الشخصية منها، ويوفر لوالده أهمها. وقد علمه والده الجد في العمل، يقول بكر في رسالة لوالده: "لا أشعر بالحياة في اليوم الذي لا أعمل فيه" (ص. 465) وتلمح حكمته في إحدى رسائله ويقول بكر في رسالة أخرى: "الشباب جميل والشيخوخة حكمة ومنتصف

العمر مليء بالأزمات." (ص. 462)

كان عزت لماحا في ملاحظاته التربوية، ولنذكر هذه الحادثة مؤشرا على تبصره؛

كتب أحد المهتمين بأطروحاته: "يحدثنا (علي عزت بيجوفيتش) عن صديق له عرض عليه مقالة كان يكتبها عن تربية الشباب تربية إسلامية ، فتبين له أن صديقه هذا يدعو الوالدين إلى تنشئة أبنائهم على مكارم الأخلاق، وحسن معاملة الناس، والتواضع والرأفة والعفو والصبر والاستسلام للمقادير. وينبه المربين إلى ضرورة إبعاد الشباب عن الشارع وأفلام العنف والجريمة ورعاة البقر، وعن المطبوعات الضارة وممارسة الرياضة العنيفة.

وقد لاحظ (علي عزت) أن أكثر الكلمات ترددا في هذا المقال هي كلمة "الطاعة"، فعلى الشبان أن يطيعوا الوالدين في البيت والشيخ في الكتّاب والمدرس في المدرسة والشرطي في الشارع ، ثم بعد ذلك ، طاعة المدير المسئول أو الرئيس في العمل .

ويمضي (علي عزت) ينقل إلينا صورة الشاب المثالي كما يصورها صديقه فنراه ولدا مسالما لا يشاغب في الشوارع، ولا يرفع صوته أبدا، فلا يسمع له حس، ويشكر الجميع دائما ويكثر من الاعتذار للآخرين .

ولأن الصديق لم يكن قد أتم مقاله بعد، فسمح (علي عزت) لنفسه أن يكمل لنا صورة الشاب المثالي على النمط الذي سار عليه المؤلف فأضاف: (يسكت إذا غشه الآخرون في البيع، ولا يرد على أحد إذا ضربه في الشارع وباختصار يكون نموذجا لشخص لا يكنّ شرا لأي مخلوق) .

يقول علي عزت : (أدركت وأنا أقرأ هذا المقال معنى ذلك القول المأثور: أن الطريق إلى جهنم ممهد بالنوايا الحسنة .. كما أدركت جانبا من أسباب تخلفنا وانحطاطنا في القرون الأخيرة وهو التربية الخاطئة للنشء، والحقيقة أننا نربي شبابنا تربية خاطئة منذ قرون، وكان هذا ناتجا من عدم فهمنا للفكر الإسلامي الصحيح، ففي الوقت الذي كان فيه أعداء الإسلام من المستعمرين يبتلعون الدول الإسلامية واحدة بعد الأخرى مدعمين بعلومهم وغطرستهم واستهتارهم بنا، كنا نربي أجيالنا على الطاعة العمياء لولي الأمر لأن كل سلطة إنما هي قدر من عند الله لا حيلة لنا فيها ولا خيار)! .

"الأدب يكشف بعض الأسرار التي تميز الرجل عن المرأة، الرجل يكتب عن الخير والشر، عن البطولة والجبن، عن معنى الحياة ولا معناها، عن النضال والحب. النساء يكتبن عن الحب فقط. وإذا تناولن موضوعا آخر فهو دائما مكرس للأول، الذي ترى المرأة من خلاله الحياة وتعيشها. الرجل يكتب عن كل الحقوق، واللاحقوق، والمرأة إذا كتبت فإنها تكتب عن حق واحد، حق القلب، وهذا هو قانون علاقتهما القديم قدم العالم." (ص. 43)

نقل علي عزت عن مالكوم إكس: "تأكدت من أن القوة الأخلاقية أو الضعف الأخلاقي لكل دولة يمكن قياسه بلباس المرأة وسلوك المرأة، وخصوصا الشابات في الأماكن العامة." (ص. 129)

هذا القول شبيه جدا بملاحظة زميله القيادي المسلم محمد علي كلاي: "المرأة هي نسيج الأمة، منتجة الحياة. جودة الأمة من جودة نسائها.

ويتحدث علي عن قضية المرأة ومما يرى أهمية تحريرها من الثقافة المسيحية، النظرة المتجهمة للمتع الحسية بما فيها الجنس، وما داخل بعض الطوائف الإسلامية من التنزه الزائد، ومن عقدة الجنس أو أنه دنس، و تطهير العقل من الوثنية الحيوانية المادية التي تتجه إلى تجريد المرأة والرجل من الروحانية والأخلاق وقداسة العلاقات الزوجية،

فالزواج غير السفاح، ويدعو إلى رؤية المرأة المسلمة من خلال أمور منها: فوارق البيئآت، والعادات، وفوارق العصور، فالعصر المبكر للإسلام كان للمرأة دور فيه، وما بعد ذلك عزلت بشكل حاد عن سياق المجتمع ويرى هذا في منتصف القرن الثالث بسبب تأثير بيزنطي ومن بقايا التراث البيزنطي ، أما رؤيته لموضوع غطاء الوجه –بعد أن أثير الموضوع في البوسنة- فيقول رأيت النساء بجوار الكعبة سافرات، وقليلا ما رأيت خلاف ذلك فكيف نلزم المرأة في البوسنة بأكثر مما ألزمها الإسلام؟

وينتقد الموقف الغربي من موضوع الأمومة، فهم لا يرون لعمل أم تربي خمسة أطفال على مدار اليوم من أهمية توازي كونها تدرّس التطريز والرسم لعدد مشابه، فهي في الصورة الثانية عاملة منتجة، وهم يهوّلون من قصة تعدد الزوجات، بينما يبيحون زواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، والنسبة التقريبية للتعدد في مجتمعات المسلمين واحد إلى ألف، بينما نسبة من يخون زوجته في الغرب ألف إلى واحد.

وله نظرات ثاقبة في قضايا تاريخية وإنسانية مهمة، وفي مصير المجتمعات: كما أن من ملاحظاته الذكية أن حضارة ما عندما تتجه للخلف وتبدأ التأخر فإنها لا تعود إلى الأشكال التقليدية "المجتمع التقليدي" وإنما تتوحش، إن هذا يحدث بشكل دوري، حينما لا يمكن متابعة النزعة الحضارية، فإن هذا يؤدي إلى فقر مادي وروحي"

تدخل الشعوب التاريخ أغنياء في الأخلاق وفقراء ماديا، وعندما يخرجون من التاريخ فإن الوضع عادة يكون معكوسا، هكذا حدث للفرس القدماء وللرومان وللعرب وللغربيين المعاصرين.. فيتحدث المؤرخون عن السقوط الأخلاقي والروحي وكيف أنه وسط الوفرة المادية والفخامة يضمحل الإنسان، [قبل نهاية الإمبراطورية تألف الجيش الروماني من الفرسان فقط؛ استولوا على العالم مشاة وفقدوه فرسانا] (ص. 192) ومن بعد كانت الإمبراطورية الأسبانية، ففي أواخر سطوتهم كانوا يحذون الخيل من الذهب.

تنهار أخلاق الإمبراطوريات قبل انهيار حكوماتها، فيذهب التقدير والمهابة لها والإقتداء بها من قلوب الشعوب الخاضعة، ثم يتبع ما بقي من احترام، وقد تبقى المهابة زمنا، برغم رفض القلوب والعقول لما يحدث، ولكن داء الخلق الرديء ينخر في منسأة الإمبراطورية حتى إذا خرّت، ندم المستعبدون على زمن الخضوع والعذاب المهين، في نهاية

الإمبراطوريات ينتشر الإلحاد والفساد الخلقي، ولا يبقى سوى الأقزام أخلاقيا.

فالأخلاق وعي وتعليم وليست إنتاجا، والديكتاتورية غير أخلاقية حتى عندما تمنع الحرام، فالأخلاق غير منفصلة عن الحرية، بينما الديكتاتورية تعتبر نفيا للأخلاق، [لا توجد أخلاق بدون فرضيات الحرية] في الدين لا قيمة للفعل بلا نية، والنية هي الحرية-أي الاختيار- فالخير الإجباري ليس خيرا، ومعنى هذا أن كل مجتمع إنساني يجب أن يكون مجتمعا للأفراد الأحرار .. وعندما تفقد الحياة الاجتماعية معناها يصبح الحل للصوفية أو للملذات الحسية، عندما ينقسم المجتمع إلى طرفين زهاد وجسديين) (ص. 119 -117 وما بين [ ] من صفحة 99)

ثم ينتقل بعدها للحديث عن البيروقراطية داء مجتمعات كثيرة فيقول: "أحد قواعد البيروقراطية الأفضل ألا تفعل شيئا، لأن من لا يعمل لا يخطئ، ولا يسأل عن اللا عمل." فالبيروقراطية حياة الركود المناهض لكل إبداع. (ص. 147)

أما عن النهضة نجد هذه الملاحظة القيمة التي أخذها من التاريخ الألماني: "حرب الثلاثين عاما، أخرت ألمانيا، يتحدث المعاصرون للحرب عن التوحش والتأخر الروحي العام الذي يطبع النصف الآخر من القرن السابع عشر في هذا البلد. وبدأ الإصلاح بداية القرن الثامن عشر باستيقاظ الوعي الشعبي، وانتعاش التقاليد الألمانية، ومناهضة

التأثير الأجنبي. كل نهضة تبدأ بالشعور بالاحترام تجاه الذات نفسها. وإذا صلحت فإنه لا يفهم وضع سياج إزاء بقية العالم، ورفض الاتصال به. إنه اختيار الطريق الذاتي والاتصال ذو [المسارين] مع بقية العالم. هذه هي النهضة الحقيقية." (ص. 165)

وعن مستقبل الفكر الأوروبي في "القارة المشربة بتراث القرون الوسطى الديني والفني مما مكنها من تقبل القصص الإلحادية." (ص. 84) يعطي علي عزت أهمية للفعل فوق الفكر، لكون الفكر خارجيا أكثر، فهو يميل إلى العمل، وإلى الروح. (ص. 63) وهو ميال لوحدة وتجانس الكيان البشري، ولكنه مهما ابتعد فإنه يعود لنقاش الفكر وأثره الكبير في الحياة؛ يكتب عن مستقبل الفكر الأوروبي بعد دراسة واسعة لفلسفة وفنون وآداب أوروبا، ويرى أنها مرتهنة بالثقافة المسيحية المتطرفة، لا تتركها حتى عندما تشتمها، ولا عند تقييمها للآخرين، أو مرتهنة لموقف مادي علماني متطرف، يهجر الروح والإيمان: "سيظل دين أوروبا وإلحادها سادرين في طبيعتهما المتطرفة" ثم يستثني انجلترا وبعض العالم الأنجلو سكسوني الذي شهد بعض إصلاح المسيحية، بأن لديه ملامح من الطريق الثالث: "الإسلام" ويشير إلى مقدمة الطبعة الإنجليزية من الإنجيل –لعله يعني طبعة الملك جيمس- التي قالت بالوسطية وهو ما لم تقله طبعات أناجيل أخرى في أوروبا. ويعيد سبب اعتدال الموقف الثقافي الإنجليزي لجهود الفيلسوف الإنجليزي الأشهر: "روجر بيكون"، الذي كان من أكبر الشخصيات الثقافية التي

أقامت التوازن بين الروح والمادة، وبين العقل والعلم، وإلى تجانس هذه النوازع، ثم يعيد سبب هذا التوازن الفكري لبيكون إلى تلمذته الكبيرة على المعارف الإسلامية، وأخذه كل اكتشافاته العلمية عنهم، فهو من اعترف بفضل فيلسوف المسلمين ابن سينا عليه، -وقد لقبه بأعظم فيلسوف بعد أرسطو - ولم يكن قادرا على المزيد من التوضيح في زمانه. هناك تفسير آخر للاعتدال الإنجليزي وممن قال به "برتراند رسل" إذ يرى أن التوازن في الموقف الإنجليزي يعود إلى تجربة الناس وتضررهم من الوقوف الحاسم مع الملك أو مع البرلمان، ونتيجة هذا الصراع وصل الناس في انجلترا لفلسفة التوسط. فلا يدفعون بنظرية إلى منتهاها.

قد يكون عاملا: "التجربة التاريخية والفكرة الفلسفية" تعاونا على صناعة الموقف السياسي والفكري المتكرر، لأن إعادة الأمر لعامل ثالث كالبيئة قد لا يشفع، لأننا عرفنا من التاريخ السياسي والثقافي المر السابق لإنجلترا ما يعطي أهمية بالغة للثقافة تجربة وتفلسفا وأن هذه الثقافة أو التجربة غارت في أعماق الشخصية الإنجليزية أولا، ثم الأنجلو سكسونية –بشكل أقل- وهذا ما يجعله أيضا قابلا للزوال بفلسفة أخرى وبتجارب جديدة. ولعل هذا ما يتم العمل عليه الآن في صناعة ثقافة جديدة، تبحث عن هوية مضادة لما تراه من تحد، فتصنع لنفسها -بوعي وبدونه- حالة تطرف ديني واقتصادي استعماري وبعث لعنصريات كانت خافتة.

ثم ينقل نصوصا عجيبة لتطور الفكرة الإنجليزية في البراجماتية "النفعية" تقترب من مفاهيم: "المصلحة" عند المسلمين، ويعقّب عليها من ويليم جيمس بإشارات يشير إليها عزت ولا يؤكدها. ولعل من المناسب أن تُدرس العلاقة بين نظريات المصلحة عند مفكري الإسلام كالطوفي والغزالي والجويني والشاطبي، وعلاقة هذه الأفكار بمدرسة الفيلسوف الأمريكي (بيرس)، ثم في تطويرات البراجماتية عنده، ثم عند تلميذه وزميله ويليم جيمس. وبخاصة أن بيرس (رائد فلسفة النفعية) كان قد جمع شتات ثقافة العصور الوسطى وفلسفتها، واستوعب فلسفة روجر بيكون، وكان بيرس هو الباب الذي دخل منه جيمس لتطوير "النفعية" أو البراجماتية، والتي قد تدلنا يوما ما على علاقة هذه الفلسفة بـ "المصلحة" عند فلاسفة القرن التاسع عشر في أمريكا خاصة!! وقد لا نجد جذرا مشتركا إلا مبدأ المصلحة العملية بين الطرفين، وهو في غايته مخرج عملي من قيود الفقه والقانون والمدارس الفلسفية. كما يقول ابن القيم :"حيث تكون المصلحة فثم شرع الله"

الطريق الثالث

هذا الطريق الوسيط كما كتب هو ملخص لكثير من جهده في أهم أعماله الفكرية: "الإسلام بين الشرق والغرب" وتجد أفكار الكاتب منثورة في الهروب من الحرية، والطريق الثالث هو طريق الاعتدال في التعامل بين المادة والروح، بين المفاهيم الثقافية المتطرفة إما روح مسيحية سلبية خاذلة، أو مادية متوحشة، فيما رأى أنه عالمه الأوروبي فإنه في الاعتدال الإسلامي الذي يضبط تطرف المادة وتطرف الروح، وكان في الكتاب جهد لا يكاد يكون مسبوقا في رصد أشواق الإنسان في العالم لأن يجد هذا الطريق الثالث المعتدل، الذي وجدت أفكاره الإسلامية منذ قرون، ولكن المسلمين أنفسهم كانت تجتذبهم جواذب النزعة الروحانية السلبية بسبب تأثير الثقافة الرومانية المسيحية في روحانية منحرفة، أو روحانيات الشرق الهندية والفارسية، وبين موجات المادية في طبيعتها العربية قبل الإسلام، أو المزاج المادي قديما عند العرب قبل الإسلام –رغم تهذيبه الخلقي، ولكن الأخلاق غالبا نزعتها مادية- ثم أخيرا تأثير الفكر الأوروبي الحديث. لقد قدم في وسطيته ما يتجاوز الوسط الذهبي عند الفلاسفة.

ملاحظات

كانت الديانات ضربا من الحرية، وقد حاول المستبدون عبر القرون تحطيمها لتخدمهم ولتذل الناس، حاولوا أن يجعلوا من الدين سجّانا آخر، وحاولوا أن يجعلوا من الثقافة سجنا أضيق، وجاءت الكشوف الجغرافية العظيمة وتطور السفن والطباعة والمحركات البخارية ففتحت العقول للحرية أكثر، ولكن المستبدين كانوا يستبقون هذه الآلات لتكون سجونا أو مساعدة للسجون، واليوم جاءت الفضائيات بابا للحرية فكان تهديد المتحدثين ومتابعة وقتل الصحفيين شعار وممارسة أعداء الحرية، ولهذه الحرية الجديدة –كما تبدو- باب خطر آخر على الحرية وهي أن يسبح الإنسان في فضائها هاربا من واقعه، فيقل أثره في مجتمعه، وتصبح الحرية فراغا نطير فيه تهريجا، ثم نهبط إلى الأرض فنجد الكبت والتخلف يخنق الحرية الحقيقية، ويحاصر الكرامة الإنسانية، ويؤذن بعالم من التفاهة السابحة في الفضاء.

إن الاهتمام بالأمن لا يعني تقليص الحرية، فضلا عن غيابها، فالحرية يمكنها أن ترسخ الأمن والثقة في الناس، وتنصّب المجتمع مجتمع وعي ونباهة لمصالحه، مجتمع شهود واستقامة، والأمن لا يعني غياب دور المثقف الحر، بل بغياب المثقف الحر المستقل يسود الظلام والخوف، وتتبلد الحياة، وتغيب الأخبار، وتندر التحليلات الجريئة الرائدة، ويظهر

الخائف والبخيل والجبان، فتسود ثقافة الخوف، وينفتح الطريق لغزاة لا يرحمون.

التحرر الثقافي، يعني توسيع الموارد الثقافية، و الخلاص من التقليد، ومن الغرق في تفصيلات يسلم المثقف بجّلها، في البدء، ثم تكثر المسلمات، فيضعف الالتزام بها، مثل القوانين كثرتها تقلل من أهميتها، وتسبب إهمالها، والشك فيها. جاء في الحديث: "إنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" ورغّب الرسول صلى الله عليه وسلم في ترك الأسئلة، الافتراضية الآرائيتية التي تضيق على الناس مستقبلا، وقلل صلى الله عليه وسلم من النجوى، وطلب قبلها صدقة لتقل. ولأن النجوى تغرس مفاهيم خاصة، وشعورا ببناء مفاهيم خاصة للبعض، تميزهم عن عموم الأمة. ويفهم من النصوص الرغبة في قلة القوانين، والناس من عادتهم أن يبحثوا عن: "راحة العقل"، وأن تكون كل قضية قد حسمت بحكم، وانتهى كل رأي وكل جدل، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخالف هذه الشهوة، ولكن الناس يتعاملون مع كبارهم دائما بهذه الطريقة، وإنك لو تأملت حرص بعضهم على سؤال كبار الذين اشتهروا بالعلم لوجدت أن النزعة والسبب غير المعروف أو غير المعلن: "نزعة ضعف عقلي" تريد من الشيخ أن يريح الناس من التفكير في كل شيء إلى أن تقوم الساعة، وهي النزعة التي تصدمك دائما بأن كل شيء قد حلت مشكلاته وأجيبت أسئلته، وانتهى أمره، وتلك من أوهام المبتدئين في دروب المعرفة.

وسبيل المعرفة والتحرر والوعي هو الركون إلى أصول صامدة قوية، قليلة وبانية ومؤثرة، فمثلا ما يوجزه العلماء تحت مسمى الإسلام والإيمان والإحسان، وحوادث السيرة الكبرى، كافية عن الغرق في الجدل الجزئي. مثال ذلك بعض ما أوردته الكتب التفصيلية الفقهية في موضوع: "أولى الناس بالإمامة" حتى تكاد أن تكون معيبة لقارئها فضلا عن كاتبها، فالبحث الزائد عن الحاجة مع عقل مستقيل يسبب بناء للشذوذ والمضحكات.

كما أن المسلم المعاصر بحاجة إلى الانفتاح على مفكري المسلمين الذين قد يرى بعض المشايخ أن عندهم أخطاء، فليس صحيحا أن تقف عند بعض أقوال المشايخ، فجهود كبار مفكري الأمة خير من الاقتصار على ضعاف مقلدين وإن كانوا في رأيك مأمونين، فقد يكون ضعفهم العلمي أو العقلي وقلة مغامراتهم المعرفية هي سبب نيلهم للثقة من العامة؛ لأنهم لا ينيرون فكرا ولا يبعثون وعيا ولا نقاشا مفيدا، جديرا بالتأمل والمدارسة. إنه إن لم تبعث بيننا ثقافة كبار مفكري الإسلام فسوف يضعف من نحب له الوعي والقوة، أو يقع في ثقافة معادية تستتبعه.

ولدى الحزبية الإسلامية والحزبية العلمانية جوانب مشتركة، كانت كارثة على العقل المسلم، فالإسلاميون والقوميون والشيوعيون في عالمنا عندهم داء مشترك، وهو إرث ورثوه فوق طاقتهم أن يتخلصوا منه، وهو: "إنا وجدنا آباءنا على أمة" فهذا الذي جاء متوقعا أن سينقذنا

ورّطنا، فبدلا من أن يخرجنا من التقليد أركسنا فيه، وبدلا من أن يعطينا تفهما ووعيا وممارسة جديدة، أعطانا إرثا، وألزمنا بالعمل فيه. وقد يكون من المخارج التي ربما تساعد أن تكتفي هذه الأحزاب بالولاء، وتتخلص من التماثل الثقافي، هذا التشابه الذي يقضي على التنوع، ويقتل الإبداع! قد لا يبدو هذا ممكنا الآن! أو لعله مجرد أمنية، ذلك لأن العداء على قاعدة الخلاف الحزبي تجعل الموالي ضعيف العقل مقدّسا، والمخالف للحزب مهما تكن قدراته مهجورا شرعاً، أو مفصولا مخونا حزبيا، ويحضرني هنا مثال من حزب البعث فـ"منيف الرزاز"، الذي قُدِّم عليه عفلق كثيرا، مع أنه لا تناسب بين القدرتين، وبقراءة أعمال الرجلين يتضح الفارق بينهما، ومن الإسلاميين قرئت كثيرا كتب الجندي وسعيد حوى والألباني، وروّج لها كثيرا، ولأقل منهم، بينما هجر الإسلاميون مفكرين كبار مثل الطاهر بن عاشور، ومالك بن نبي وإلى حد ما المودودي، لأنه لا أحزاب لهؤلاء تروج لهم، فغابت معارفهم، وعاش الأتباع على رث الثقافة وسقيمها.

إن الهروب من الحرية عجز عن حمل الأمانة، وتخل عن المسؤلية، ونزول عن معارج الإنسانية، يرى فروم سببه العجز واللاجدوى، والحقيقة أن الشعور الدائم بالعجز واللاجدوى "العبث" هي أخطر سموم المجتمع.

يقف علي على ذرى التأملات النهائية محبا لزمانه، ووفيا لعصره ومعاصريه، يقول: "هذا عصرنا. إنه صعب ولكنه ممتع إلى ما لا نهاية. يمكننا أن نتحسر بأنه لم يكن سهلا، ولكننا لم نملّ منه. يمكنني أن أتحسر لأنني لن أعيش حتى أرى الخاتمة. إنني أتحدث عن الموت. وربما لا تكون هناك خاتمة أو موت. فقد تغلق عين ترى ذلك من حولها، ولكن الحياة ستستمر. ولادة جديدة، عيون جديدة تفتح على غرار الإزهار عقد جديد، وهكذا بلا نهاية. إلهي.. أنت كبير، وكبير هو العالم الذي خلقته!! (ص.77)

هل السعادة هجرة إلى الداخل أم إلى الخارج؟

يرى هرمان هيسهه: أن "حياة كل إنسان عبارة عن طريق نحو نفسه" وقد تفهم قوله على أنه رحلة من الخارج إلى الداخل، فهو كما يقول: "توقفت عن توجيه أسئلتي إلى النجوم والكتب " فكأن العمر رحلة تسير من بعيد في دروب قادما من بعيد عائدا إلى أعماق الروح، ولعل هذا لتأثر هرمان هسه بفلسفة الهند الروحية المتجهة للتأمل الداخلي، أما برتراند راسل في انتصار السعادة (بحسب الترجمة التي قرأتها وإلا فله عنوان آخر في ترجمة أخرى: السعادة) فيرى السعادة هجرة من الداخل، ومن ظلمات الحزن والكآبة والفردية إلى العالم الخارجي. ويرى أن استغراق الإنسان في المنافع القريبة والأنانية لنفسه تضعف الإنسان، وكلما خرج الإنسان وقلل من تهالكه على منافعه كسب روحه وعقله؛ يقول: "أحد مصادر التعاسة والإعياء والشد العصبي هو انعدام القدرة على الاهتمام بأي شيء ليس له أهمية عملية في حياة الفرد الخاصة، ونتيجة ذلك أن العقل الواعي لا يستريح من عدد قليل من أمور معينة كل منها ربما يشتمل على بعض القلق، وبعض عناصر الانزعاج، ولا يتاح للعقل الواعي أن يستلقي مستريحا على الإطلاق إلا أثناء النوم بينما تنضج أفكار تحت الوعي حكمتها تدريجيا، وتكون النتيجة هي الاستثارة، وانعدام الفطنة، والانفعال وفقدان حاسة التناسب [ربما التوازن] وكل هذه الأمور هي مسببات وآثار للإعياء. فكلما أصبح الإنسان أكثر تعبا خبت اهتماماته الخارجية. وبينما

هي تخبو يفقد هو تدريجيا التفريج الذي كانت توفره له ويصبح أشد تعبا. وهذه الدائرة الخبيثة لن تنتهي إلا بالانهيار. "

العقل الغربي عقل يذهب إلى الخارج، وينفتح على الآفاق، ويعالج الكون، وبرتراند رسل تجل لهذه المذهبية، وللطبيعة الحية المتقلبة المتغيرة كثيرا في الغرب علاقة بهذا الوله بالخارج الحي المتقلب، وللجو ولليل المظلم البارد الموحش الطويل، وأثره في الداخل في البيت وفي النفس علاقة بذلك، وقد كانت للرواية الطويلة والأقاصيص الخيالية كـ: أقاصيص كنتربري أو "كنتربري تيلز" التي تقطع ليل الشمال الطويل علاقة بالبيئة والجو، وبالنفس والحياة المحيطة المحبطة. ثم يأتي نهار طويل معتدل يخرج الإنسان إليه أسباب كثيرة، تعيد للخارج بهجته وشوقه. وهذا نداء القرآن، (قل سيروا في الأرض) و (أنظروا) تتكرر كثيرا، أما فلسفة التصوف الشرقي فإنها تتجه إلى الداخل، وإلى طمأنة النفس والسكون الطويل، وكأن الخمول عندهم مبعث الحكمة.

وهل كان لموضوع السجن عند علي عزت أثر في التذوق للخارج والاستمتاع به أكثر من الرحلة للداخل؟ لنقرأ هذا النص لفرانكل الذي سجن –لكونه يهوديا- زمنا في آشفتز سجن هتلر المريع، يقول: "وكلما صارت الحياة الداخلية للسجين أكثر عمقا، صار السجين أيضا أكثر نزعة إلى أن يخبر جمال الفن والطبيعة بطريقة لم يعهدها أبدا من قبل. فبتأثيرهما كان ينسى في بعض الأحيان ظروفه الباعثة على الفزع. ولو

أن شخصا ما كان قد رأى وجوهنا في الرحلة من آشفتز إلى معسكر بافاريا حينما شاهدنا جبال سالزبورج بقممها المتألقة في أشعة الشمس، من خلال النوافذ القليلة المدعمة بالقضبان في عربة السجن، فإنه لن يصدق أبدا أن تلك كانت أوجه أولئك الأشخاص الذين سبق لهم أن فقدوا كل أمل في الحياة والحرية. وبالرغم من ذلك العامل أو بسببه فقد استولى جمال الطبيعة على أفئدتنا، بعد أن كنا قد افتقدناه مدة غير قصيرة.. ذات مساء حينما كنا نركن إلى الراحة على أرض كوخنا، وقد أضنانا التعب ونحن ممسكون بأقداح الحساء في أيدينا، دخل علينا أحد الزملاء مندفعا وطلب منا أن نهرع إلى الأرض المحيطة بنا لنرى المنظر العجيب لغروب الشمس. وقفنا خارج الكوخ، وأبصرنا السحب تتقد في الغروب، والسماء كلها تتألق بالسحب التي تتغير أشكالها وأنواعها باستمرار، من اللون الأزرق المشوب بالرمادي إلى اللون الأحمر الدموي.. قال سجين آخر: كم يمكن أن تكون الدنيا جميلة."

إن للسجين عينا أخرى يرى بها العالم، لا يعرفها من لم يجرب تجربة هؤلاء.

الأمل والمستقبل للسجين

لست أعرف سر قراءة عدد من الكتب في موضوع واحد في وقت واحد تقريبا، دون أن أخطط لذلك، أولها: "تلك العتمة الباهرة"، للطاهر بن جلون، وإعادة قراءة: "هروبي إلى الحرية"، فكتاب علي عزت بيقوفتش، الذي زاد تفوقا على كثير من الكتب العالمية المشهورة في مذكرات السجناء، والتي يعد كتاب: "الإنسان يبحث عن المعنى" لفرانكل من ألمعها وأوجزها، وفيه لمحات استبصار جميلة، وكتاب الساعة الخامسة والعشرون، قرأته قديما جدا، ولم يبق في الذهن إلا مشاهد باهتة بعيدة، وهو أيضا من مذكرات السجناء اليهود في الحرب العالمية الثانية، وقبلها أتذكر مذكرات زينب الغزالي، بما فيه من حقائق أو مبالغات موحشة، وروايات منها: "القابضون على الجمر"، وكتاب: "مشي طويل للحرية" لنيلسون مانديلا، من أطرفها، أما كتاب علي عزت فهو أعمقها، وليس من الصواب حجر الكتاب في أدب السجون، لأنه يتجاوز موضوعا ومحتوى كل أدب السجون.

"أصحاب الحياة العقلية الغنية ربما عانوا الكثير من الألم (وغالبا ما يكون تكوينهم رقيقا) إلا أن درجة تعرض ذواتهم الداخلية للأذى كانت أقل، فكان بمقدورهم أن يتخلوا عن الواقع المفزع المحيط بهم إلى حياة من الثراء الداخلي والحرية الروحية." ثم يذكر من تحايل النفس والسجناء على الحال السيئة، العودة للماضي الذي يجد فيه السجين فسحة من

الحاضر المؤلم، فيبحث عن البلادة مهربا، أو اليأس وسيطرة الجبرية، أو يبحث عن المرح، وعن الحب وتذكره، (على الرغم من ضعف الدافع الجنسي لدى السجين) أو الغلو في توقع الحرية، والأمل والمستقبل. ويصف علي بعض أحوال النفس السجينة: "يقدر [السجين] أن يتسلى بأفكاره ولعبة الفنتازيا، بينما يكون جسده داخل الشبكة إلا أن روحه تكون مع أحبائه، ويمكنه في الخيال أن يشاهد عرضا مسرحيا أو أن يرحل إلى بلاد بعيدة.. وتتألم الروح مثل الجسد وفي بعض الأيام تظهر جميع الندوب على الروح، وكل الأوجاع القاسية، والتي هدأت مع مرور الوقت، كما تظهر قبل الأيام العاصفة بعض الرضات القديمة، أو يتوجع العظم من ضربة كانت قد حدثت أثناء الحياة الطويلة، ونسيت في تلك الأيام تكون بمزاج سيء، ومحاصرا بذاتك وروحك، التي فتحت جروحها، لكي تذكرك بأن لا شيء يضيع، ولا شيء يختفي، حتى أقل الآلام والذكريات البشعة، إنها تخبو فقط، وتنسحب إلى أعماق مجهولة." (ص. 64)

كيف لا ييأس السجين وهو يرى الأهوال، ثم يسمع قول السجان يصرخ في المساجين بعد أن شاركوا في دفن أحد زملائهم، والتقط أحدهم حشيشا من الأرض في فمه، وهمّ الآخر بأن ينتحر: فيهددهم السجان بما يرون بأعينهم ليس بعيدا عنهم" إنها المرة الأخيرة التي تخرجون فيها. لم يعد هناك شيء اسمه دفن انتهى انتهى، لن تغادروا زنزاناتكم بعد اليوم.. لن تغادروها إلا وعيونكم مطفأة، أقدامكم أولا، وأجسامكم مغلفة بجراب

من البلاستك " مثلما في ملحمة مانديلا "مشي طويل نحو الحرية" نجد أن الحفاظ على الزمن كان هما كبيرا للمسجون، فهو حفاظ على العقل أيضا، وكان يخطّ على الجدار خطاً عن كل يوم بأي وسيلة، ليحافظ على معرفته بالزمن، ووجدنا المساجين في سجن "تزمامارت" يكلفون أحدهم بالحفاظ على الزمن، ومعرفة الوقت، فمن أكبر الأخطار التي يتعرض لها السجين فقدان قيمة الوقت؛ ففي السجن تحدث خبرة خاصة للزمن، و"تبدو الوحدة الزمنية الصغيرة (اليوم) والمليئة بالرعب والإرهاب والتعب على أنها بلا نهاية. وربما تبدو وحدة زمنية أكبر، ولتكن أسبوعا على أنها فترة قصيرة وتمر بسرعة بالغة.. وقد كان زملائي يوافقونني حينما أقول إن اليوم في السجن يستغرق وقتا أطول من الأسبوع. وأيضا يقول عن الوقت والاهتمام بالمستقبل: " الإنسان الذي كان يدع نفسه تتهاوى لأنه لم يستطع أن يرى لنفسه أي هدف مستقبلي، كان يجد نفسه مغمورا بأفكار لأمور قديمة.. إنه يرنو إلى الماضي، لكي يساعده على جعل الحاضر بكل ما يتضمنه من رعب أقل واقعية. . ومن الطبيعي أن قلة من الناس يكون في مقدورهم أن يصلوا إلى مستويات معنوية عالية عظيمة.. الخاصية المميزة للإنسان أنه يستطيع أن يحيا بواسطة تطلعه للمستقبل .. إن السجين الذي فقد ثقته في مستقبله وفي المستقبل عامة يكون قد حكم على نفسه بالفناء، وهو مع فقدانه للثقة في المستقبل، يفقد تماسكه المعنوي؛ ويكون بذلك قد ترك نفسه للتدهور، وأصبح عرضة للانهيار العقلي والجسمي، وعادة ما يحدث ذلك فجأة، في شكل أزمة، أعراضها مألوفة لنزلاء المعسكر أصحاب الخبرة.. وهناك علاقة بين

الجسم وبين حالة العقل، توافر الأمل والشجاعة وفقدانها، فعندما تصير الثقة في المستقبل منعدمة تصبح إرادة الحياة مشلولة.. وتقل المناعة ويقع الجسم ضحية للمرض." ثم ذكر المؤلف قصصا لوفاة الذين يضعف إيمانهم بالله، أو ليس لديهم أمل يتعلقون به، أو أسرة أو حبيب يعملون له شيئا في قادم الأيام.

وهكذا يرى الإنسان سعادته في امتداد الزمان، وخروجه من ضيق المكان، ليتسع العالم أمامه، فعمله الخالد بعده هو أو ذريته بعده، هو ما يحرص عليه –عليهم- عبر الزمن القادم المختلف.

القسم الثاني

الفن والدين عند علي عزت بيقوفتش

الفن حرية، والعلاقة بين الفن والدين والفكر -أو: "الجمال والمقدس والحقيقة" بحسب أخرين - علاقة متماسكة، أو علاقة جدلية، وهي متداخلة متنافسة، فيها تتجلى الروح الإنسانية بمعاناتها ورقيها الممايز لعالم المادة وعلومها، وكل من هذه الجوانب السابقة يطل على الكون ويقدم على فهمه وتفسيره، وبالتالي يهدف إلى توجيهه، وتلك مهمة الفلسفة -أو من مهماتها- فالفلسفة محاولة لفهم الوجود والنفس والزمان وعلاقة كل منها بالآخر، وتفسير الوجود والعلاقات بطريقة تثمر القناعة والوئآم بين الإنسان ومحيطه.

والدين –هنا الإسلام- يتجاوز حدود الفلسفة في هذه القضايا لأسباب منها عدم التوازن الذي تنتجه الفلسفات المختلفة، مابين الروحي والمادي، أو الجفاء الفلسفي للروح أو الغرق فيها بعيدا عن المادة. في هذا المقال ندرس تجربة شخصية ريادية، أثبتت جدارة لافتة، فهي شخصية مغرقة في الاهتمام بالفن والفكر وبحكم تدينه العميق فقد اهتم بالاسلام، وبسبب الأغلبية المسيحية في يوغسلافيا فقد جرته إلى الاهتمام بها ومقارنتها ولو بطريقة غير صريحة ولا منفتحة أحيانا، ولكونه من قومية صغيرة عانى همومها ففتحت له موضوع الاهتمامات القومية، ثم السلم والحرب، وغامر في عالم الفلسفة و وجد نفسه في خضم عالم السياسة مبكرا وإلى

نهاية عمره (حيث يتجلى التطبيق للتفسير الفكري أو الفلسفي للحياة) وكتب رؤيته وبعض تجربته، مع أنه لا يظهر لنا "علي عزت" هنا فنانا ولكن مفكرا وناقدا للفن، الذي شغلته الحقائق القاسية عنه، وكم من مفكر لم يصل للفكر إلا على جنازة الفنان في شخصه.

وقد تجنبت قدر الامكان الدخول في التفصيلات السياسية لحياته وحياة قومه، لأن الجانب السياسي جماعي أكثر مما هو فردي، وغيري ممن يعرف التفصيلات على الأرض أقدر على بسط وتقييم تلك التجربة، وهذه الإلمامة بجانب مهم يستحق الدراسة وهو موضوع "الفن والدين عند علي عزت" وفي فهمه وتفكيره، وأغلب ما نرجع إليه هنا هو كتابه: "الإسلام بين الشرق والغرب" وهو عمله الفكري الرئيس، كتاب عميق يصعب تلخيصه، أو عرض قضاياه، كالنصوص الثقافية العالية التي يمكنك الأخذ منها والرد على بعض فقراتها أو قبوله، وتبقى البنية الضخمة صامدة لتفسيرات عديدة وربما لزمن طويل.

وقد شهد الناس أعماله التنظيمية والحربية والسياسية والثقافية، وهنا نطلع على عوالم أخرى له، أو نطل من خلال دراسته وفهمه للفن على بعض خفايا أرواحنا، فكما يقول برنارد شو: "إنك تستخدم المرآة لترى وجهك، وتستخدم الأعمال الفنية لترى روحك." الفن أحد مظاهر السمو الإنساني وعلامات غنى الشخصية الفردية والجماعية وهو نافذة على الروح، أو أحد تجلياتها؛ ولعل الجملة التي أطلقها علي

عزت تختصر الكثير من القول: "الإنسان نبت الأرض وابن السماء" تفسر المحاولة الجادة في هذا الكتاب لاعطاء صورة عما يفكر به، وما أراد تقديمه، فالإنسان تشكله الروح والطين خالدان متجاوران، ويسيئ للإنسان من يحرمه من نصفه الروحي أو نصفه الأرضي، ولو حرم من أي لحاول أن يعوض عما ينقصه بأي تصرف يشير إلى ما فقد. فـ: "نجد أن الإنسان حيثما ظهر يظهر معه الدين، أما العلم فإنه حديث النشأة" وينقل محقق الكتاب قول بلوتارخ: "قد نجد مدنا بلا أسوارأو بدون ملوك أو [بلا] حضارة أو مسرح ولكن لم ير الإنسان مدينة بدون أماكن للعبادة والعبّاد" وكتب بيرجسون: "لقد وجدت ولا تزال حتى الآن مجتمعات إنسانية بدون علم ولا فن ولا فلسفة ولكن لم يوجد مجتمع إنساني بدون دين." ويلاحظ "علي عزت" أن ظاهرة الحياة الجوانية أو التطلع إلى السماء – وهي ظاهرة غريبة عن الحيوان- تظل مستعصية على أي تفسير منطقي ويبدو أنها نزلت من السماء نزولا حرفيا، لأنها ليست نتاجا للتطور، ويستنتج العلماء: أن الحياة النفسية للإنسان البدائي لا تختلف إلا قليلا عن الانسان المعاصر. فالروح والتعبد والفن تطلعات فوق المادة، وقد تقتلها أو تضعفها سيطرة العقل المادي أو العلم الجاف أو السلطة المنحازة، فهي تنضج وتسمق حيث لا تهيمن عليها الأوهام العقلية ولا المناهج العلمية المغلقة، ثم نقل المؤلف عن أحد الشيوعيين قوله: "إن الكومبيوتر قد يفعل أي شيء إلا العبادة وكتابة الشعر".

الفن إبداع واختراق للمدرك القريب إلى الأفق البعيد، فنجد نقاشات ومواجهات للمذهبيين من علماء العلوم التطبيقية وفلاسفتها مليئة بالجفاف أو الإلحاد كثيرا ولكن الالحاد يندر بين الفنانيين المبدعين، وفي عالمنا نستمع لأجمل الشعر العامي (أو النبطي) بل والفصيح فنجد أن روحا دينية أو أخلاقية علوية جارفة تغمره، وتوجه القيم المنتشرة فيه، وقد تعثر بين المتكلفين وهوامش الشعراء ملحدين من الذين قرروا قسرا أن يكونوا شعراء ولو بلا موهبة لينقلوا "فكرة ما"، فضيّعوا الفن والفكرة بسبب جمودهم الإلحادي البارد. إذ أن الإلحاد يكبح الخيال ويعظّم القريب والمادة، وقد تجد إنسانا ملحدا ولكن لا تجد فناً ملحدا، أو لا تجد فنانا كبيرا ملحدا، بسبب علاقة الفن بما وراء المدرك القريب. وأيضا نعرف أن الرجل الشرير لا يمكن أن يكون شاعرا عظيما. فالأمل والندم والغضب والخزي والعار واليأس ليست أحداثا إنما هي خبرات جوانية، كما يشير المؤلف، وتلك بواعث أعماق الفنان التي كان نقاد العرب يختصرونها في "الحب والحرب والموت"، إذ كانت الملهاة أو ما يسمى بالكوميديا نادرة –أو غير ناضجة ولا منظمة- في عصور ما قبل الإسلام، وكانت تحتاج إلى ما بعد الرسوخ المدني الذي لم يكن متوفرا.

وعند تأمل الكثير من الشعر بقصائده العامية، وتلك الملاحم الشعبية السماعية والمكتوبة، فنجدها زاخرة بالثقافة الروحية، وليس لأن كتابها وجماهيرها من ذوي الجهالة أو الضعف المعرفي –وقد يصح ذلك

على البعض- ولكن هذا الفن هو صورة الإنسان كما هو بأشواقه الروحية العالية، وبواقعه المادي، الإنسان في حالته الأقرب لواقعه، وليس عندما يتزمت ويتظاهر برزانة العقل وينشغل فقط بثقل المادة، ولا عندما يوسوس، أو يتنسك ويبالغ في قصة الروح، وفي الحالين يخرج من كونه إنسانا سويا، فالفن العام والشعبي والعفوي يقدم لنا الانسان كما هي فطرته أو سذاجته الأولى فالانسان بفطرته فنان أو شاعر ما دام طفلا أو بدائيا، يملك الدهشة ويصنع الإدهاش بخلاف من تنظمت عقولهم وصيغت مواقفهم وأفهامهم لاحقا وعدلت أمزجتهم مجتمعيا ففقدوا العفوية، يقول بيكاسو: "لقد استغرق الأمر حياتي كلها كي أتعلم أن أرسم مثل طفل" ويفقد الإنسان خصوبة الخيال كلما قيده عقله العلمي، أو معارفه العملية المقننة أو ميراثه الحاسم المثقل المبعد عن الخيال، فالإنسان في حال طبيعته السوية فإنه يعجب أو يسخر بالمتكلفين بسبب إندفاعهم إلى عقولهم لأسباب مادية أو إندفاعهم إلى الروح تنسكا. ومن الطريف أن تلك نتيجة يصل إليها القروي والبدوي في الصحراء وعمانويل كنت في خلاصة فلسفته في "العقل العملي".

فالإنسان القريب من الحياة السوية والفطرة عميق الاحساس بالفن وبالإيمان، له روح حية، فالفن والإيمان حاجة وسلوة، وهما عمق ورحمة، والكتب السماوية تجد أهم ما فيها مراعاة الإنسان لحياة سوية متوازنة وحيثما تختل هذه السمة في هذه الكتب يرد الشك في صحتها أو في تأويلها، وكثيرا ما تحنّ الفطرة وتدفع وتحاول لاستعادة التوازن.

ولا حاجة لتخيل الفن شيئا نائيا عن فطرة الإنسان وظروفه، ولا نجعل الفن أيضا رسالة عقائدية منفصلة متوهمة، لأننا في حال فصله باسم الفن للفن نفرض عليه عقيدة محددة (وقد تضخم هذا المذهب –الفن للفن- حتى أصبح وهو النافي للمذهبية في الفن مذهبا في نفسه) مقابل الذين يفرضون عليه خدمة عقيدة محددة ويحرمونه من الفهم أو التعامل خارجها.

وقد ارتبط الفن بالروح في الديانات، ما كان سماويا وما كان من خرافات الناس ومن بدع تبتدع لتلبي الحاجة الفطرية للتدين، وللفيلسوف البريطاني كولينجوود بحث عن: " مكان الفن في حياة الروح" ادعى فيه أن الفن من الأشكال الدائمة والضرورية للفعالية الروحية، وأنه مكافئ للخيال والتخيل عند بعض العلماء والفلاسفة وأعلى أو أهم من العلم كما يرى إينشتين فمن أجل أن تتعلم عليك أن تتخيل. والفن أكثر الفعاليات الفطرية والبدائية عند الإنسان ولذا نجد الأطفال والبدائيين أكثر انشداها واندماجا فيه قبل أن يتفهموا المسائل الدينية وقبل الترتيب العلمي، فكما للترتيب العلمي للعقل مفاسد وإضعاف لبعض القدرات الفطرية، فإننا نلاحظ أن الفن من ضحايا المعرفة، وكما يطرد العقل الشعر كذا نجد المعارف كثيرا ما تكون كوابح للمخيلة، لذا فإن الكثير من عدم الابداع عند جمهور المتعلمين في شتى العلوم كثيرا ما تعوقهم محفوظاتهم ونظم معارفهم، لأن نظم المعرفة تنشيء خنادقها الخاصة التي يتمترس بها الشخص هاربا من الخيال الابداعي، وهاربا مما قد يمس قواعد

عاشها وحفظها فاحتفظت به وغلّفته في داخلها، ولهذا فإن إطلالة العالم المتخصص على عوالم الروح والفنون كثيرا ما تكون روافد وأسباب لنبوغه في علمه أو في تخصصه الضيق أو سببا في اكتشافاته، وفي قدرته على وضعها في منظومة حيوية أكبر.

من أحسن من كتب ملاحظاته على مراقبة القوى البدائية وقوى الفطرة التي تتأثر أو تضعف بالتعليم ما كتبه كلود ليفي شتراوس عن طاقات البدائيين في أمريكا الجنوبية، وكيف تتراجع مع تحقيق مكاسب التعليم مثل الذاكرة التي تضعف بتعلم الكتابة، وكذا القوى البدنية تضعف باكتشاف المزيد من وسائل الراحة. ونعرف أنه كلما استسلم الانسان لمغانمه البدينة من نتاج العلوم ضعف تكيفه مع الكون الفطري، وأكثر الناس خسارة لقوى الفطرة الجماعات الواهمة بمكاسب الوسائل، ولكنها عندما تدرك خطر الوسائل على الحياة الفطرية وقوى الفطرة الذاتية تعتدل، أو تبحث عن اعتدال، وفي مثال الامام أحمد مع ابنه لما رأى قدميه رقيقة طلب منه أن يمشي حافيا، وكذا عندما يتمادى الفقيه في الفقه وفي حيل الفقهاء وكذا النحوي في تقعّره فإن كلا منهما يفتقد لبساطة الأمر الذي كان في أوله ويحتاج أن يستعيد غاية علمه الأول، بعد أن أضعفت "الوسيلة" غاية صاحبها منها، وغلّفته الوسيلة في زاوية من الطريق الذي كان يجب أن يسلكه إلى الغاية، مما جعل الوسائل أحيانا أو أجزاء منها غايات.

وفي فيلم المحارب الثالث عشر "عن رحلة ابن فضلان في العصر العباسي" مقطع طريف عن وصف الإنسان البدائي -من رجال الفايكنج المتخلفين في شمال أوربا- للكتابة؛ ففي هذا الفيلم يسأل رجل الفايكنج ابن فضلان القادم من بلاد الحضارة العجيبة المتقدمة فيقول لابن فضلان: "سمعت أنكم ترسمون الصوت" يقصد أنهم يكتبون الصوت أو الكلام؟ فيجيبه نعم، ويكتب له كلمة التوحيد على رمل الشاطئ! فقد كان الانشداه دائما مبعث المعرفة، ودرب الخيال لتحقيق المتخيل ثم للموت عند تحقيقه، فكأن الخيال وسيلة دائمة الأهمية ومن يفقدها يخسر كثيرا من استمتاعه بالكون فضلا عن أنه يضعف استمتاعه بالمعرفة أو تموت غايتها بمجرد سلوك طريقها أو بتحقيق جانب منها.

إن الشمول والتوازن والخيال والغاية -مدركة أو غير مدركة- في الدين رعاية لمطالب الإنسان، ونطل من هذه الناحية على مثال من مفاهيم التحبير والتغني بالقرآن والمصطلحات الإسلامية في هذا السياق، إلى جانب الأحكام ومتعة الجرس القرآني، وتأثير الأداء الصوتي "الفني" على الجانب الروحي بالقرآن؛ وقد نقل الشيخ القرضاوي خبر حادثة سمعها من شيخه محمد عبد الله دراز وقد كان عضوا في المجلس الأعلى للإذاعة-أيام مجد الاذاعة- وكان أحد الأعضاء قد قال إنهم سيضعون وقتا محددا لقراءة القرآن في الافتتاح والختام، وبعض الفترات محسوبا على نصيب الدين فقط، فقال لهم دراز: إن سماع القرآن ليس دينا فقط، إنه استمتاع أيضا بالفن والجمال المودع في القرآن والمؤدى بأحسن

الأصوات، ثم يعقب على قول دراز بقوله: "وهذا صحيح فالقرآن دين وعلم وأدب وفن معا، فهو يغذي الروح، ويقنع العقل، ويوقظ الضمير، ويمتع العاطفة، ويصقل اللسان."

والتوازن بين الروح والعقل مغنم لأي أمة تستطيع تحقيق بعض منه، فيعزو علي عزت كثيرا من أسباب النجاح والعدل والتوازن بين الروح والعقلانية في الثقافة والنظم عند الأنجلوسكسون إلى الموقف الانجلوسكسوني من الدين؛ فهم لا يتطرفون بالاتجاه العلماني كالفرنسيين ولا يفعلون كما فعل الشيوعيون في روسيا، ولا يتزمتون التزمت الكنسي الذي اشتهر به أهل جنوب أوروبا زمنا طويلا، أو التزمت العنصري، وهذا موقف قريب من بعض ما قال به ماكس فيبر، في دراسته لصعود المجتمع البروتستانتي، ودراسة وييبر كانت سابقة على صعود الأزمات الشيوعية. إذ يرى المؤلف أن البروتستانتية أقرب للإسلام بحكم واقعيتها من الكاثوليكية والأرثوذكسية في روسيا التي فتحت الطريق للشيوعية بسبب خلوها من النزعات العملية. واستطاعت البروتستانتية والإسلام مواجهة الشيوعية بسبب حضور الجانب العقلاني فيهما. أما في روسيا وشرق أوروبا فكانت كنيسة منطوية على بقية ذاوية أو تكاد أن تكون خالية من الروح، وعقل سبقت مطاردته فسقطت بسهولة تحت الشيوعية. ومن الدراسات التي اعتنت بالتوجه الديموقراطي في أمريكا بعد دراسة توكفيل ما لاحظه برتراند راسل رغم إلحاده من دور للدوافع الدينية في أمريكا في صناعة الديموقراطية الأمريكية، ونزعة المساواة إذ يراها

ذات جذور أخلاقية دينية. ويشير راسل في مقطع ينقله علي عزت أيضا إلى عامل آخر تجعل الانجلوسكسون لا يتطرفون مع الدين ولا ضده وذلك بسبب خبرتهم الطويلة والحروب الدينية، فلا يدفع بنظرية إلى أقصاها.

غير أن هذه الاستدلالات والتحريات من راسل ينقصها التغافل عن موجة تدين بين البريطانيين وحملة تنصيرية قامت بها الامبراطورية البريطانية في مستعمراتها في القرن التاسع عشر، وكان من ثمارها سيطرة مجموعة متدينة شديدة الاندفاع للكنيسة في أواخر العصر الفيكتوري فسّرت نجاح بريطانيا وسيادتها تفسيرا دينيا، وتغلغلت المجموعات الشبابية المتحمسة للدين –بعد نضوجها-في إدارة الامبراطورية البريطانية وكان من رؤس إدارتها شخص مثل رئيس الوزراء "جلادستون" المتعصب المندفع بعوامل دينية، ومن بعده شخصيات مثل "بلفور"، وقد كشفت الوثائق البريطانية عن رسوخ ثقافة وروح دينية سياسية لديه كتعلقه بتحقيق مصير مسيحي لمنطقة الشرق الأدنى -كما أسماه البريطانيون-وبخاصة فلسطين، فكان يسابق وايزمن في الاندفاع لأسباب ربما لم يكن يستوعبها وايزمن. كان بلفور يستعجل الملاحم الانجيلية ليستعيد مهد المسيحية من المسلمين وليعجل بخروج المسيح ليهدي خراف إسرائيل الضالة! وهذه الصورة التي حصلت في زمن جلادستون ومدرسته السياسية نجد شبيها معاصرا لنا بعد قرن من الزمان في التطور الذي حصل في أمريكا وبريطانيا وإيطاليا من نتاج

حركات دينية متعصبة كانت شعبية ثم وصلت إلى كراسي الحكم في هذه الدول ومن نتاج هذه الموجة المسيحية الرئيس ريجان وبوش وتشيني وبلير وسواهم. وقد أشار لهذه الإرهاصات رجل الأمن الفرنسي "جيل كيبل" قبل تصاعد نتائج التعصب المسيحي في أوربا وأمريكا، بقرابة ربع قرن.

والبريطانيون المعاصرون يربطون بين الدوافع الصليبية الدينية العميقة التي دفعت بلير لحرب العراق وتدميره إنها محصلة دوافع عنصرية ودينية أنتجت كراهية راسخة عبر القرون.

الفن والنقد

يرى المؤلف أنه لا وجود لأعمال فنية مفهومة كل الفهم، وينقل عن أحدهم قوله: "العمل الفني مسألة جوانية، ..سر.. مسألة إيمان" .. ولا يستطيع أكثر النقاد النفاذ إلى روح النصوص الفنية التي ينقدونها، لأن الناقد يريد أن يعقلن العمل ليناقشه والفن عمل ليست بنيته هي بنية العقل فقط، إذ العمل الفني رؤية جوانية، وليس عملا منطقيا، ولأن النظام العقلي الخاص عندما يقحم على الفن ويصبح النظام العقلي ميزانا فإنه يعمل في شيء ليس في جوهره من ثمار العقل. العلم من منتجات الحضارة، والفن من متجات الثقافة، والخلط بين الثقافة والحضارة هو الذي يوهم بأن منتجات العلم ثقافة وهي غالبا ليست كذلك، فالسلاح النووي والصعود للقمر ثمرة العلم، ولكن الشعراء والفنانيين يولدون في الثقافة لا في العلم، فالمتنبي ولد في عصر ضعيف العلم "التقني" ولكنه كان مزدهرا ثقافة وفنا، وتولستوي وشكسبير سبقوا تقدم بلدانهم في العلم، فالفنان يبدع والعالم يكتشف، الفن أصله فردي والعلم منتج جماعي وتراكم لجهود، والفن أصله طفرة فردية، والعلم مدرسة أو تراكم للمدارس، ذلك هو الطابع العام، ويبقى أن جو التنظيم الفني الطوعي، ومجتمع التطور التقني الحديث قد ساعد بطريق مباشر وغير مباشر على رقي الفنون التي طابعها الأصلي فردي، وجادل خبراء كبار في هذا المجال مدافعين عن أثر التنظيم في رقي الابداع حتى الفني منه.

غير أن لهذا القول في مدح الفطرة والفردية في الفن لا يعني بحال التهوين من شأن الصنعة والنضوج التقني والتطور العلمي والفلسفي في الفنون، فكأنك –عندما تركز فقط على الموهبة-تطالب الموسيقى بالعودة للمزمار والربابة المنفردة، أو تعيد الشعر لنقاش بادية أميين، فالمتنبي الموهوب نفسه هو من قال "من مخبر الأعراب أني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا" إلى آخر قوله المنبي عن تعلقه بالحكمة، وكان أثر ذلك ظاهرا في شعره، وقيل إنه لما مات وجد في جعبته عدد من كتب الحكمة، وكان يستلهم بعضها في شعره. وكذا الفنون المعاصرة فإن المعرفة ونضوج التقنيات والإتقان فيها من أسباب نجاحها وتأثيرها.

فالتدريب على أصول الفن قد تقدمه الأكاديمية، وتبعث الاهتمام والمزاج والشوق لفن ما، غير أن الموهبة الفنية لا تنتجها أكاديمية، فوضع قيود أكاديمية ونماذج للاتباع لفن ما فقد يكون ذلك من أسرار إضعاف الفن؛ فالعلم يمكن أن تفتح له أكاديمية تعليمية لأنه منضبط، غير أن الانغلاق المنهجي في الفن قاتل له أو إن: "الأكاديمية في الفن تعني الموت". وبهذا فإن الفن عمل مشترك بين الموهبة والصنعة، أو الموهبة والاتقان فكلما عظمت الموهبة وتكاملت مع الجهد في الصنعة ظهرت العبقرية في العمل.

وقد عقب علي عزت على الذين يجهدون أنفسهم في نقد بعض النصوص فيعجمونها مرة ويغربون بها وبما فيها أخرى، وكم تتعسر النصوص

الأدبية السهلة على العقول الكبيرة؛ فقد كتب اينشتين إلى توماس مان يشتكي صعوبة قراءة كتابات كافكا، لأن العقل البشري ليس معقدا إلى الحد الذي يستطيع أن يفهم كافكا! ولكن ناقدا آخر يقول أيسر لك أن تقرأ لكافكا من أن تقرأمعظم نقاده! فالنقد قد يجلب الاضطراب إلى العمل. وينقل شكاوى لبعض الفنانين الذين أساء لهم نقادهم، وأمتدحهم قراؤهم.

المستهلك للفن كالمولّه بالمحبوب لا يبحث في تفاصيله، أما الناقد فيبحث عن فكرة أو نظام يثبته أو ينفيه، وهذا مصدر مشقة للفنان ولمن أعجب بالفن ولا يدري لماذا. كافكا كما يرى بعضهم كان يكتب نصوصا أقرب للنصوص الدينية الروحانية. هكذا يظهر أن جوهر الأعمال الفنية غامض غموض المعتقدات القلبية، وقد باءت جميع المحاولات لتعريف جوهر الفن تعريفا عقليا بالفشل، مثله مثل سر الحياة، وينقل دليلا على فشل القدرة على تعريف الفن بنص لأحد النقاد: " إن تعريف العمل الفني شكل ومضمون، اعتراف و وهم، لعب ورسالة، هو قريب من الطبيعة وبعيد عنها، هادف ولا هدف له، تاريخي ولا تاريخي، شخصي وفوق شخصي في الوقت نفسه." وتجد الفن في النهاية غنى للروح لا قوة فقط في مادتها، وقد يضعفها وقد يشحذها للعمل. فالنص الفني حاسم في تأثيره على الناس وسحره، فقصيدة عمرو بن كلثوم لم تزل مبعث فخر، وقصيدة قطري بن الفجاءة قالوا إنها تشجع أجبن الناس، وسخرية سرفانتس بالجندي والجيش الأسباني في "دون كيخوته" قيل إنها من عوامل احتقار الجيش والجندية وبهذا أضعفت الامبراطورية الأسبانية.

لذا فإن النص أو الفن المبدع كثيرا ما يتعالى على التفسير -"ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والفهوم" كما قال أحد الفنانيين المغرورين- لأن التفسير كثيرا ما يذهب بطرافة الفن والقول، ويشوه -أحيانا ودون قصد- جمال النص، وكما قال أحد العلماء وقد قدم نكتة أدبية جمعت بين جمال اللفظ وطرافة المعنى فاراد أحدهم شرحها فقال العالم: "جئتك بنوارة ففركتها" جئتك بوردة هي للشم والمنظر لا للفحص ففركتها فأفسدتها!! وكم يذهب التفسير بطرافة الحديث.

إن الفن هكذا، ولكننا في الحقيقة لا نستطيع أو لا يستطيع الناس ترك الفن متذوقا بلا نقد، فالنقد حتى السطحي والساذج مدخل للاستمتاع به، وعلي عزت أحد عشاق الفن وكبار دارسيه، ولن يطيق البعد عن نقده، وأعماله فيها حشد عجيب من ملاحظة مختلف الفنون ونقدها، لا تجده إلا لدى من تفرغ لهذه الصنعة، ومن عكف على كتبه المتيسرة لنا لاحظ مواهبه في التذوق والنقد، وفوق ذلك اتساع مجالات ثقافته وحسن تبصره فيما يعرف، وأمانته في نقل النصوص.

وكم اعترض أنصار الفنانيين الكبار على النقاد ورأوا في بعضهم عمال تشويه للفنون، وما أكثر شكوى الفنان ممن يعيب فنه ويختزله من النقاد، وهذا العيب والاختزال لما لا يفهمه فاعله "فاعل الفن" أحد أسرار الشكوى، وليس التعريف بعمله، ويبقى نقد الفن طريق معرفته وتذوقه وشهرته وتأثيره.

وقد كنت -كقراء المعلقات- استمتع بمعلقة إمرئ القيس حتى قرأت نقدا لاذعا لها عند الباقلاني في "إعجاز القرآن"، جعلني لا أنظر لها بنفس النظر السابق، ينتقد المعجبين بقصيدة إمرئ القيس الذين يرونها عملا شعريا فذا، فهو مثلا يسخر بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجته من جنوب وشمأل

ثم يتساءل هل هذا شاعر أم بياع يعرض دارا للبيع فيصف موقع البيت ويبين حدوده ولم يقنع بحد واحد حتى بين حدوده الأربعة، بين سقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة، "يخشى إن أخل بحد واحد أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا" لقد فرك الباقلاني قصيدة إمرئ القيس حتى أخرجها من بين أصابعه مهشّمة فاقدة للشكل معتلة المضامين.

الزينة أو الفن من مقاصد الدين

الفن غايته المتعة، عند مستهلكه، أما عند منتجه فالمتعة أحد نتائجه لا دوافعه العديدة، وهو أعلى تجليات الزينة، وقد نبه القرآن إلى أن الزينة كانت مقصدا من مقاصد أصل الخلق، فبعد وصف منافع الحيوان للإنسان قال: "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون" ولم تختلف الكثير من مشاعر الإنسان وهو يرى القطيع الذي يملكه ويرعاه، أو أسراب الحيوانات التي يراها في الأفلام عن إفريقيا، أو يذهب إليها في رحلات "السفاري"، مع تميز سعادة الامتلاك الإنساني للجمال الحيواني في قطيعه يجعله أقرب لروحه. وفي خلق السماء إشارة لحكمة الجمال التي بدأ العلم يهتم بها في السنين الأخيرة وقد أشار القرآن إلى غاية من غايات الخلق وهي الزينة، ومنه خلق السماء وبروجها، وكرر المن بالزينة لها مرتين: "وزينّاها" و أنكر على من حرم الزينة: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده" و "صنع الله الذي أتقن كل شيء" و في حديث مسلم: "إن الله جميل يحب الجمال"

يرى الفيلسوف هنري بيرجسون أن الفن هو ابن الدين، ويشير علي عزت إلى أن الصلة بين الفن والدين قديمة وعميقة منذ عصور ما قبل التاريخ، فكان أول تمثال منحوت من الحجر وثنا يعبد، ولعلها أعجبتهم براعة التمثال فعبدوه، فالدين والفن و "الأخلاق البدائية" جميعا ذات مصدر واحد عنده، وهو شوق الإنسان إلى عالم المجهول.

ولعل البحث أو الشوق لما وراء المسموع والمرئي من شفافية الإنسان، وغاية مشروعة، من أمثلتها في ثقافة المسلمين سؤال موسى لربه بعد سماع النداء أن قال: "أرني أنظر إليك" وتعقيب المفسرين بأن السؤال دلالة إمكان ذلك، ولو لم يكن ممكنا لما جاز السؤال! وفي عصرنا أتبع الإنسان رغبته وشهوة الاستطلاع وصنع لها وسائلها، وأصبح الخيال وقودا للعقل وللمادة وللانتصار بجانب العلم، فالفن والخيال بداية تنفيذ للبعيد، وجلس العلم بجانب الفن يستقي من الخيال سلاحا له، لا بل سلاحا حقيقيا لقتل الآخرين والسيطرة على الكون، فالجيش الأمريكي يولي روايات الخيال العلمي الكثير من الاهتمام، ويشتري كثيرا حقوقها، ويساعد في إخراجها كأفلام، وكخطوة أحيانا لصناعة سلاح جديد.

ويؤكد علي فكرة بيرجسون عن أن "الفن ابن الدين"، وإذا أراد الفن أن يبقى حيا فعليه أن يستقي دائما من المصدر الذي جاء منه. ويرى كثيرا من النصوص الدينية منبعا للفن، حتى من نصوص كتاب تعرض للترجمة عدة مرات كالإنجيل، وينقل عن بعض الدارسين أن فن ورسوم مايكل أنجلو ما هي إلا استمرار للمسيحية، وتحويل للإنجيل إلى ألوان وأحجار. ومن اطلع على أعمال مايكل أنجلو لا يحتاج إلا إلى المعلومة السريعة السطحية عن مسميات ومحتويات أعماله، فهي رسم لما ورد في الانجيل، ورسم لاحق لشخصيات كنسية، ومرتبط بالفاتيكان وبالانجيل، ومن هنا يأتي الذوبان الفني لديه في الدين، أو أن الدين عنده يتجلى فنا، ومن أدمن القراءة لنجيب محفوظ وهو على حظ من المعرفة الإسلامية

والصوفية والمسيحية فإنه يبصر الأجواء الروحانية والسلوكيات الدينية مع الدين أو ضده تمثل لبا لأعماله وزادا لخياله، إلى جانب اللغة وأثر القرآن في لغته، فهو في خصام مرة وفي وفاق أخرى، وفي ترويج وفي نقد لا يكف، وإن فسرنا عمله تفسيرا اجتماعيا فإن الدين أعطاه قضية لفنه مع أو ضد.

فالفن –كما ينقل علي- إذا استبعدنا منه الغثاء فهو مقدس وفوق عقلي، ويبقى الفن رسالة مقدسة شهادة ضد محدودية الإنسان ونسبيته. ثم "إن ما يخبرنا به الفن والطريقة التي يخبرنا بها شيء يفوق قدرتنا على التصديق، كأننا بازاء رسالة دينية." ولا نبتعد عن قول علي عزت كثيرا حتى نجد أشعيا برلين يلمح إلى أن عبادة الفن صوتا أو لونا أو صورة هي مظهر من مظاهر الفعالية الروحية.

أكثر المبدعين فنيا كانت لهم أعماق روحانية وتجارب بالغة الأثر في نفوسهم وسطروها في أعمالهم، وتولستوي أحدهم وقد تفرغ للروحانية في أواخر حياته وكتب كتابا في المواعظ اليومية والحكمة، كما أن كبار الشخصيات العربية من الأدباء والخطباء كان للغة القرآن وآفاقه الفنية حضورها الكبير في أعمالهم ونصوصهم، مهما كان ترددهم وأوبتهم.

ومن لمحات الذكاء والذوق لدى علي عزت تفسيره المتقن في الربط بين نفسية الفنان ونفسية العابد والمتفرغ للعبادة قوله التالي: "الصلة الجوانية بين الفن والدين يمكن إدراكها في حقيقة أخرى أيضا وهي تعمّد أو

قلة الاهتمام المهني الذي يوفره الفنانون لمظهرهم الخارجي مقارنة بما سمي بـ:[الاتساخ المقدس] لبعض النظم الدينية خصوصا في الهندوسية والمسيحية. إن الفنانيين والرهبان في أعين الناس من طينة واحدة، ومهما يبدوا الأمر غريبا لأول وهلة إلا أن هناك فكرة واحدة في أعماق الرهبنة البوهيمية" ومن مثل هذا ما يحدث من سلوك بعض الزهاد والمنقطعين من المسلمين، الذين يلقون على تصرفاتهم ألقابا وتسميات كثيرا ما تنحت من مصادر إسلامية، مع أنها كثيرا ما تخالف دينهم.

وله تفسير مهم لتراجع الفن في روسيا في العهد الشيوعيي، ذلك أن الفن لا ينمو في مجتمع ملحد، وكانت أغلب التفاسير تؤكد على أن سبب التراجع الكبت والديكتاتورية وهذا سبب صحيح، غير أن تفسيره هنا يستحق التأمل، -مع أنه في نقاشاته للحرية يلمح بل يتعاطف مع التفسيرات السياسية لتراجع الفن- لهذا يرى أن روسيا بسبب إلحادها لم ترق فيها الفنون، لأن الفن لا يعيش في جو الالحاد، وقد قمع الشيوعيون الكثير من الفنون وحرموا كتب دستوفسكي وباسترناك، وسولجنتسين، ويخلط علي عزت نفسية ستالين المستبدة بمزاجه المحارب للمثقفين، وتحكمه في كل شيء حتى أنه لم يكن يسمح لفلم أن يعرض قبل أن يشاهده، ومن بين سبعمائة كاتب حضروا المؤتمر الأول للكتاب الروس عام 1934 لم يبق منهم أحياء إلا خمسين شخصا في عام 1954م، ويرى أن الفن هو روح الثقافة والمدن والمعمار، وإذا لم يكن هناك روح للإنسان فلم إذن نحرص أن يكون للمدن روح؟ وكان يستحضر أشكال

المباني الجماعية الباهتة في العهد الشيوعي التي كانت بلا ذوق ولا روح كدليل على التنافر بين الفن والإلحاد . وبما أن الدولة الشيوعية كانت ضد الدين فهي ضد الفن! وبالتالي لا طريق لوجود الفن إلا معارضا للوضع القائم، ومن هنا تلاحظ أن أكبر جوانب المقاومة للشيوعية كانت من قبل ذوي المواهب الفنية، فكان الفن من أكبر مؤسسات المقاومة للديكتاتورية الشيوعية، ولم تستطع روسيا جذب كبار الفنانين في العالم إلى صفها بسبب معاناة الفن على أرضها، فمثلا كان يمكن لبيكاسو زيارة روسيا ولكن لم يكونوا يسمحون بفنه!

أعلنت الشيوعية حربها أو حرب المادة على الروح أو على الدين أولا، ثم على الفن تبعا، ولم يقبل الشيوعيون –أو أعادوا تفسير ظاهرة- أن الموسيقى والمعابد الكنائس خاصة والدراما والنحت لها عروق دينية مقصودة أو غير مقصودة، ويلمح المؤلف إلى أن الفن "يردّ دَينه إلى الدِين"، فلوحات مايكل أنجلو ونحته قد يراه بعضهم انجيلا من ألوان وأحجار، وفن العمارة كان في الغالب متصلا بالروح والدين، ولعل من أهم مجاليه بناء المساجد والكنائس والمعابد، ففي فن العمارة روح دين سارية من منابعها الهدف والباني. ولعلنا نفهم من النهي النبوي عن تزيين المساجد أنه الخوف من غلبة متعة العين والفن الحسي القريب الملاحظ بالعين المجردة على روح الدين الغائرة في الأعماق من فكرة وراء المكان المادي، حيث تتعمق فكرة العبادة في الأعماق تعيد بناءها ثم تهذب الظاهر، أما أن يخطف جمال البناء المادي البصر فإنه يضعف

هدف العبادة، ويصرف الغاية الروحية من التوجه إلى الله إلى التوجه لتماثيل وأشكال يراها الناس في بادئ أمرهم تعبيرا عن الدين ثم جزءا منه دينا ثم تكون فنا وتهرب بالانسان من أخلاقيات الدين العليا وقيمه إلى معايير الجمال المادي برقيه أو انحطاطه.

يختلف الدين عن الفن في أشياء كثيرة -وإن كابر خصوم الدين- منها شمولية الدين وجزئية الفن، وأن الفن مرحلة وسطى للروح، بين البلادة وتعالي الروح الدينية، فمرحلة الفن والتعامل معه انفعال عارض، وتقصر عن مرحلة التقوى والاعجاز الديني والسمو الروحي، فتقف عند لحظة الاعجاب والاستظراف للفن، لأن الفن مهما علا فهو قريب التناول ومحدود الغاية ومعتاد الظهور عاجل التأثير، ومتقاربة، ومقدور على تعليل أكثره، وإن خفي الكثير من آفاق جماله، يستسهله الناس ويتسامحون في الخلاف عليه، ولعل من السخرية بالذين خلطوا بين الدين والفن ولم يميزوا موقف لينين حينما رأى المتاحف بديلة للكنائس أي بديلة للدين، وهو في الوقت نفسه يقتل الملايين ليدخلوا في دينه! لقد كان قسيسا مندمجا في دينه، وملك دينه الجديد عقله وعاطفته حتى لا يرى دينا في مستوى دينه بل كل ما في الأديان الأخرى مجرد فنون عابرة! ورأى في نفسه الرسول الأخير لديانة الحق الوحيدة التي فشلت عاجلا جدا!

ونبقى في نطاق حديثنا فإن عدوان الفن على الدين بالتقريب والتجسيم أو التزيين المبالغ فيه يفسد غاية الدين، وقد تكون نيته حسنة لتقريب الدين من الناس بواسطة الفن، ولكن نهاية الاندماج بين الفن والدين اضعاف الدين لصالح الفن، ثم تحول الدين والفن في أذهان المتعرضين لهما إلى تصور بأنهما من نبع واحد، وذلك حين ينحدر الدين –في أعينهم- عن جلاله إلى اختزاله على أيدي المهرة في مهنتهم سواء كانوا من مهرة الفلاسفة في فلسفته كأهل الكلام أو من يفلسفون الدين، فيحصرونه ذهنيا وزمنيا ومكانيا أو عندما يعتدي عليه مهرة الفنانيين في تصويره وصناعة وسائل الجذب إليه. ولهذا كان من الضروري دائما تنقية مصادر الدين الموثوقة من تخرصات الشراح من ذوي المتع الثقافية والاستعراضية.

أما أن الملحد يرى في الفن بديلا للدين فلأنه مهما قست طباعه أو تبلد مزاجه فإنه لا ينكر انفعاله ولو بالفن، وهو أدنى مراحل اليقظة الروحية، وبحكم أنه لم يسعد بتجربة دينية -ولنقل بالصلاة مثلا- فإنه يرى في الفن بأنواعه كالمتاحف أو المسرحيات أو الأصوات محققا لتلك اللمعة الباهته التي عبرت به في لحظة ما، ويحاول أن يبقي الباب موصدا يحتمي وراءه دون أن يفتح أفقا للروح لا يطيق المغامرة فيه.

ونعود لعلي عزت حيث ينتهي في مسألة قرب الفن من الدين إلى فكرة طريفة وهي أنه لا يوجد إلحاد أخلاقي و "أن الإلحاد لن يفهم أبدا

جوهر الفن وطبيعته" إذا كان هذا كما يرى فما بالنا نجد فنانيين لا يلتزمون شعائر دين أو الدين، علما بأنهم يتمتعون من الفن بموهبة وانتاج فني عالٍ؟ ومن الاجابة على هذا التساؤل أن نجد فيما سبقت الاشارة إليه في موضوع الاشتغال بالفن عن الروح من غاية منع المغالاة في تزيين المساجد هو سبب هذه الخدعة النفسية أو تحويل الحاجة الروحية المعنوية من الروح إلى الحس القريب، وهذا الحس الذي يعوض بعض الحاجة الروحية يتحقق بعضه في زينة المعابد أو الكنائس ولاحقا أكدوا –أمثال لينين- على أن عنى أو طرافة بعض المتاحف ستشكل تعويضا عن الدين وكنيسته، ولما لم تحقق المتاحف وزينات الكنائس وروعتها جوع الروح عاد الناس مثقلين بموقف مشوش عن قيمة الفن والدين والموسيقى في خليط غير متكامل ومتناقض. ولم يتخلص الدين المزين بالفن من الفن ومن فتنته القديمة المتجددة، التي لم تستطع التخلص منها، ولم يقو على تنقية الروح من ملابسات شكلية أو وثنية أحيانا. ويبقى أن الفن فيه من جنس الروحانيات، يمس بعض المحسوس منه أحيانا أعماق الإنسان فتنصرف النفوس له مضحية بالروح الإيمانية الحقيقية وبهدفها.

الروح الدينية تقتضي الدهشة فالطاعة والإجلال والخشوع والعبادة، مما لا يحققه الفن المجرد، وعندما تلتفت النفس للفن المحسوس وترق له فإنها تجد في الموسيقى والأصوات وفي الرسم والنحت والأشكال مثابا للروح الجائعة، فتراه تعويضا عن المطالب الروحية الدينية، أو تتخيله فتجعله دينا سواء كان ذلك بادعاء واع، أو بالحصول على جانب من

اشباع روحي تتوهمه أو تراه نهاية المطاف، وبسبب نقص الفن فإنه لا يجيب عن شيء، ولا يستجيب لحاجة، ويبقى لمحة في ظلام. وما موقف الغزالي في "إحياء علوم الدين" حين قارن بين منافع الموسيقى ومنافع القرآن كان هذا منه تأثرا بأثر الفن وغوايته الناقصة، واندماجا لحظيا -كعادة الغزالي- في أثر الفن على الروح والمشاعر، واجتزاءا موهما لأحد منافع القرآن، وليس لأن ذلك عنده كان غاية القرآن، ولو ينطلق القارئ مع رأي الغزالي الفني الجزئي هذا فيعممه أو يذهب به بعيدا إلى آخره لدخل إلى أفكار أخرى بحيث لا يبقي لعقائد الإسلام ومفاهيمه من دور في توجيه الفن ولا ضبطه، فيصبح البحث يدور في مجالات الجدل الفني الفلسفي بعيدا عمّا آمن به سواد المسلمين علماء وعباد عامة من رؤية لهذه المعاني والميادين فكانوا يقدرون الفن وأثره ولا يتبعونه.

غير أن الفنون تزايدت على هامش الدين بدعوى خدمته ونشره وتجديده، ثم زادت قوة الفن وتعالى النزاع بين الخادم والمخدوم، حتى خرج الخادم ليكون سيدا مطاعا في معابده الفنية بكل أنواعها، وأصبحت علاقة الفن بالدين مجرد تاريخ، هذا إذا لم تأخذ أو تنجرف إلى قول سدنة الفن المضادة بدعوى كونه الأصل ثم زعم كونه البديل المستقبلي!

ولعل هذا الانسياح الروحي أو الذوقي العاطفي "الصوفي" بمعناه الأعم –أي الخلط الشامل للأديان وغيرها- مما كثّف من حضور أذواق الناس وعواطفهم فأثرت في الصياغة والتفسيرات المتحولة والمستمرة للأديان

عن أصولها وممارساتها الأولى، فقد تطور فن الموسيقى في الكنائس وكذا العمارة ، -وأحيانا لتكون وسائل جذب بديلا عن خواء الروح المنتشر وبديلا عن ضعف الوعاظ، وبسبب الخوف من ابتعاد الرعية عن الكنيسة جاءت التعويضات والآلات الموسيقية لتشارك في الصلاة، ولتصنع بعدا وبدعا لا تنتهي! ولهذا كان البحث المزدهر والمستمر عن التأصيل والتجديد أو التأويل قصة لا تقف.

ولعل القول بأن أشواق الروح، وجاذبيتها ودور الفن الجزئي في إثارة كوامنها هو ما أثّر على الغزالي عندما كتب عن الموازنة بين القرآن والموسيقى ثم نصح باتباع الأقرب لصلاح الروح؛ وكذا بعض ما كتب ابن حزم عن: "أن النفس تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة" ، وما ردده شعراء الصوفية ومنشدوها وموسيقيوها وكذا مبالغات الروحانيين من المسلمين مجرد شطحات وأحوال تمنع فرديتها أو خصوصيتها وجزئيتها أن تقبل أو أن توضع في سياق ديني عام، بل هي تراجع عن خطه الوسط! ويحاول الفن بوعي من محبيه أو بلا وعي أن يسد حاجة الروح، ويعوض فقدان الروح الدينية، فتكون العلاقة عكسية: "عندما يتراجع الدين يرفع الفن رأسه، ويعود إلى تناول مجموعة من الأحاسيس، والأحوال النفسية التي أنتجها الدين."

حرية الروح توسع آفاق الإنسان، وتبهج عالمه الداخلي، ومن الروح يبدأ عالم الفنان الرحيب، وكم من معاناة روحية كانت سببا لعمل فني

راق، ونماذج هذا واسعة بدءا بالمثال السابق لدستوفسكي وكذا اعترافات الغزالي في "المنقذ من الظلال" أو بعض لمحاته في: "جواهر القرآن" ومن قبله "اعترافات أوغسطين" وقد حشاها بالتأله والحزن والتوبة وهكذا من بعدهم، إنما نقرأ لهؤلاء ليست النفس ولا العلم الذي يدرسه العلماء، إنها الروح التي تتحدث عنها الأديان وجميع الأنبياء. إنها الروح الحقيقية التي تحتضن نبل الإنسان ومسؤليته، "ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون"

وهو يفرق بين الفن والفكر، فالفن فردي أصيل شخصي ومتفرد، الفن بداهة، ولا شيء منه يتكرر، والفن نفسي وأخلاقي وجسدي، ففي مسرحيات شكسبير هناك النفسيات والدوافع، والتلميحات، وليس العقل ولا العلم ولا الاقناع بالحجة، وهو ما يجعل بعض الفنانيين يكتفون بحضور الشخصيات ولا يهتمون بالأحداث في نصوصهم، إذ أن صناعة الشخصية عمل الفن المثير وهي أغرب وأبدع من الأفكار والأحداث؛ يقول يوجين أونيل "لا حاجة بنا إلى الأحداث فإن الشخصيات كافية " ولعل من أهم المؤثرات عند تولستوي هذا الوصف المتدفق لشخصياته. أما الفكر فإنه يميل إلى التجانس والكشف دائما عن المشترك، ويسعى عبر الجدل لصناعة التوافق، أما العلم فيسوده التطابق والتأكيد والتكرار. وكما أن العلم هو معرفة الطبيعة ونظمها فإن الشعر هو معرفة الإنسان.

ولهذا يواجه النقاد الصعوبة في تقييم الفن وفي محاولة وضع القوانين له وقياسه، ويكثر العبث فيه وباسمه ويكثر واستغلاله استغلالا فاضحا ثم نجده يتمرد على العقل، وعلى اللغة، وعلى القدرة على الوصف، يسكن مرة في لغة ويكون ماردا فيها، وقد يهاجر بالنقل أو بالترجمة لبيئة أخرى فيصغر وتقل أهميته وجاذبيته، أو يجد حياة رائعة جديدة، إذ ليس في الفن ضمان وليس فيه يقين.

وللفن أثر بالغ في قوة اللغة ونشرها وحفظها، فجودة الفن تخلد اللغة التي كتب بها، وكلما اصطنعت اللغة أعمالا فنية راقية رسّخت انتشارها وأطالت عمرها ووسعت جمهورها وانتفع منها أهلها موردا اقتصاديا وثقافيا وروحيا، وقد كان لإنجيل الملك جونز وأعمال شكسبير أثر حاسم على نشر اللغة الانجليزية، وترسيخ الحكم، ونشر المسيحية، فالفنون الأدبية تصنع اللغة ويصنعها، ويبقيها فقد انتهت أمجاد اليونان منذ قرون ولم يحي اليونانية ويخلدهل إلا آدابها.

وبما أن الفكر هو المرحلة التالية الأعلى من مرحلة العلم، فالعالم في تطوره قد يتفوق على نفسه "ويصبح مفكرا أو فيلسوفا أو فنانا ومن هنا ينشأ اختلاف تلقائي بين ما يكتشفه العالم لنفسه وبين ما يكتشفه للآخرين" فالفكر والفلسفة والفن تجربة متعالية على مجرد معرفة قضية أو تخصص ما، وكما أشار في مسألة المعرفة التي للآخرين والمعرفة التي للذات وبما فيها من تناقضات فإنها للأسف لازمة مزعجة، ومع ذلك

فهي تصنع انسجاما روحيا داخليا يظهر أنه متناقض مع العقل والدين، فإذا بالفيلسوف "كنت" كما أشار "علي" وصل لفكرتين متناقضتين في كتابيه "نقد العقل المحض" و "نقد العقل العملي"، فكان الأول عقلانيا صارما تاركا لكل ما عدا العقل الجاف، فإنه رجع في "نقد العقل العملي" للبعد الروحي. ولعله بهذا نضج أو اكتشف لنفسه لاحقا ما لم يكن مدركا له سابقا.

ولا يبدو لي المؤلف في ملاحظاته ولا من يتحدث عنهم من كبار مفكري العالم أنه بدعا من هؤلاء ولا مختلفا، فكل الزخم العلمي والفني والفلسفي الذي تقرأه له لا تملك إلا أن تقف أمامه مقدرا هذه المعرفة الموسوعية والنظام الفكري المتين والعقل والروح العميقة الإيمان، وكأن هذه الفلسفة والفن والقراءة الدائبة وما من الله عليه به من استيعاب ولمحات عميقة صنعت من قوته الروحية قوة أعظم حضورا وتأثيرا، فالفن الذي يهدف إلى المتعة، والعقل الذي ينير الوعي، والعمل المثمر الذي كان يحاول أن يصنع به مجتمعا منسجما لقومه، كانت هذه العناصرمثلثا متوازنا ومنتجا في حياته، ولم يستغرق في ذاته، لأن من خدم جسده فقد حريته، والفن نمط من الحرية يكافح به سيطرة القهر المادي والجفاف العقلي، وكانت الروح الدينية والفن بشتى أنواعه من الزاد الذي قاوم به سنوات السجن المديدة، والأحكام التي تبعث على اليأس.

فلم يكن فيلسوفا متفردا متوحدا مع كتبه في صومعة، بل كانت حياته عملية غاية في العمل والبناء، حتى لتعجب لهذه المقدرة على الجمع بين الطرفين، فالفهم والقدرة الفلسفية قد توحي بفقدان صاحبها لزمام العمل كما غلب على كثيرين، ولكن هذا لم يحدث له، فقد كان مثل ندرة من الفلاسفة الحركيين في التاريخ، واشتهر بنشاطه العملي السياسي والإداري وجهد المقاومة الذي طغى حتى كاد أن يخفي عن العالم ذلك المفكر الأصيل.

فقد كثيرون نعمة الانسجام الفكري بين العقل والروح فكان هذا الانفصام منبع شقاء وبؤس في النفس واضطراب وأزمات لا حد لها، ومنبعا لأفكار مدمرة، وقد غلب هذا الانفصام على عبّاد العقل، ودمر كثيرين من غيرهم، ولكن علي وجد أنه يمكنه ان ينساق مطمئنا مع روح حاضرة عالية وأن يوجد نظاما فكريا داخليا روحيا وعقليا وبل وسياسيا واجتماعيا فكان محبوبا من عامة المتعاطفين مع مظلمة شعب كمناضل سياسي، ومقبولا من قبل المفكرين الذين شهدوا بنبوغه، وهناك فرق كبير بين مهارات العقل العملي السياسي وبين وثبات الروح التي تطبع جل أعماله وسلوكه، ورسائله وصداقاته التي ترك لنا بها سجلا رائعا يحكي تكاملا عقليا وروحانيا وإنسانيا عميقا، إنه لم يعان من معرفة تبتسر الحياة، ولا من روح تشف وترتفع وتنسى حاجات الواقع الإنساني بكل تعقيداته.

ويرى أن هناك قوانين للروح، ولها عالم يخالف عالم العلم الحديث ومناهجه، ولكل منهما طريقه الذي لا يكاد يجمعه مع الآخر، وتلك مسألة أجاد في الايجاز عنها، وقد يصعب استيعابها لمن لم يلاحظ النقاشات الجديدة في علاقات الدين بالعلم، إذ تدور هذه الأيام نقاشات غربية بين المؤمنين والملحدين تكاد أن تكون هي الأعنف منذ عقود بعيدة. ويكاد حماة الروح والدين عبر العصور ألا يقولوا جديدا إلا تأكيد صدق التجربة الروحية لمن جرّبها، وبدون هذه التجربة الروحية لا يمكن بسهولة اقناع المنكرين، ولهذا يرى استقلال المنهجية العلمية عن القناعات الروحية. فلم يزعم أنه توصل لانسجام و وحدة في الطريقة والغاية عن المنتجات العلمية وتناسبها مع الروح، فأعطى لكل عالم طريقة ومنهجا، كلاهما يضيئآن ويغنيان الشخصية المزدوجة، ولا يلزم لهما منهجية واحدة للتجربتين العقلية والروحية.

وإذا كان الشعر معرفة الانسان وكان العلم معرفة المادة فإن الفنان والتقي والأخلاقي أعداء للاختزال الدارويني، لأنه يختزلهم في قانون واحد، ويقسرهم في صندوق العلم، وهم يتمردون ويسمون إلى معارج الروح، فهم يرون أنفسهم فوق قوانينه، وقد سبقوه إلى هذا العالم، فالفن والموعظة هذبت الأرواح، وأعطت لاجتماع الناس معنى، أما العلماء فقد أراحوا بدن الإنسان بتقنيتهم، ويحلمون باخضاع روحه لمعاملهم، وهم إلى الآن لم ينجحوا، ويبدو أن بعضهم لا يعترف فليستمروا، والناس سعداء بالسباق في مجالي الروح والمادة، فيتمسكون بحقهم في معارج

الروح ويؤيدون العلماء في سعيهم لإنجاز متع وراحة الأبدان، وليس على الإنسان أن يختار بينهما –بين الروح والمادة- بل قد يكون قادرا أن يحولهما إلى مغنمين، ومصدرين لسعادة بدنه وغنى روحه في شخصية موحدة أقل تمزقا.

ترك علي عزت في بعض آرائه بذور نقد ومادة لخصومه، ولمن يتعقبه في مشكلات من نوع الخلاف بين منهج العلم ومنهج الدين، ومن حسن حظه أن موقفه السياسي وحمايته للمسلمين في بلاده وجهاده المديد منذ شبابه المبكر إلى وفاته كانت شواهد صدق، بل مجد لا يسهل مطاولته، ثم إن اعتماده كثرة النقول والجمع بصعوبة بينها أحيانا أعطت الانطباع بأن الكتاب كان تحت البناء فغابت بعض خلاصات رأيه أو اضطربت ولم تتم منه نسخة نهائية.

ختاما لقد حاولت أن أنقل صورة الفن والروح عند علي عزت الذي كاد أن يكون هو "نبت الأرض وابن السماء"، نبت الأرض فكرا وتنظيما واحتجاجا وحربا ومصالحة وسلما، وابن السماء روحا وعبادة وفنا، فمن شدهه العقل والفن والعمل والحب بالغ فيه، وأغضى بصره عن اضطرابات عديدة، حاولت إبلاغ صوته وحده فلم أستطع، وذهبت كثيرا إلى رأي أو شرح أو احتجاج، والانسان يحاكم نفسه أو يشغلها نفسه بما أراد، ولكن الناس يهمهم ما فعل، ويبقى صوت المؤلف الخاص به كامنا في كلامه لا في قول مفسريه، ولا طرائق ورغبات مقدميه.

أنهيت قراءة نصوص علي عزت فخالطني شعور بألفة العلماء الكبار، حيث العمق والبساطة الشخصية، ولعلي لم أقل عنه ما يستحق أن يقال، فقد وجدت له تقديرا يفوق نصوصه، و وجدت بين سطوره حكمة ولفتات ألطف من مغامرات الفلسفة ولفح شكوكها، فكتابته أرحم وأرشد لقارئها، فقد كان جوادا بسلاح من الفهم والتطمين، يخوض بك الظلمات وأنت آمن.

من الكتب والنصوص التي أحيل إليها

1- ابن حزم الأندلسي، الألفة والألاف، رسائل بن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج1، ص17-319، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007.

2- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1971م

3- ألفريد يولس آير، الفلسفة في القرن العشرين.

J. Ayer (Alfred Jules), Philosophy in the

Twentieth Century, Vintage Books, New York, 1984, p. 231.

4- رالف بارتون بري، إنسانية الإنسان، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، مؤسسة المعارف، بيروت، 1409 هـ 1989م

5- علي عزت بيقوفتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، مجلة النور الكويتية، الكويت، ومؤسسة بافاريا ميونخ، عام 1414هـ 1994م .

6- علي عزت بيقوفتش، هروبي إلى الحرية، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، من اللغة الصربية الكرواتية، وبمراجعة محمد أرناؤوط، دار الفكر، دمشق وبيروت، 1423هـ 2002م.

7- علي عزت بيغوفيتش، سيرة ذاتية وأسئلة لا مفر منها، ترجمها إلى الإنجليزية: صبار سال الدين، وياسمينة عزت بيغوفتش، وترجمها عن الإنجليزية إلى العربية عبد الله الشناق ورامي جرادات، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى ذو الحجة 1424هـ كانون الثاني يناير 2004 م.

8- فيكتور فرانكل، الإنسان يبحث عن معنى، ترجمة طلعت منصور، دار القلم الكويت، 1402هـ 1982م

9- كولينجوود، فلسفة الافتتان:

R. G. Collingwood, The Philosophy of Enchantment, .Clarendon Press, Oxford, 2007

10- محمد علي كلاي، من كتاب لورا دويل، المرأة المستسلمة، فاير سايد بوكس سايمون أند شوستر، نيويورك، 2001م ص 156.

11- محمد يوسف عدس، نافذة على فكر علي عزت بيقوفيتش، حول التربية، من الإنترنت، http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/08-06-2001/Ads2.htm

12- هرمان هيسه، دميان، قصة شباب إميل سنكلير، رواية، ترجمة ممدوح عدوان، دار الأزمنة،1989 عمان.

13- هوارد جاردنر. خمسة عقول من أجل المستقبل، مكتبة العبيكان، 1429هـ -2008م

14- يوسف القرضاوي، الإسلام والفن، مكتبة وهبة، القاهرة، 1416هـ 1996م